# وباء الكوليرا في الحجاز: حج عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م

## من خلال تقرير القنصلية البريطانية في جدة

**د. سلوى بنت سعد الغالبي**
قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الملك عبدالعزيز

أثار ظهور موجات لوباء الكوليرا[١] - في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي - في الحجاز خلال مواسم الحج، الدول الأوروبّية وفي مقدمتها بريطانيا التي

(قدم للنشر في ١٤٣٣/٦/١٠هـ، وقبل للنشر في ١٤٣٣/١٠/٢٢هـ).

(١) الكوليرا: هي عدوى معوية حادة تنشأ بسبب تناول طعام أو ماء ملوث ببكتريا الضمة الكوليرية، وتنتج ذيفانًا معويًا يؤدي إلى إسهال مائي غزير غير مؤلم يمكن أن يفضي إلى جفاف شديد وإلى الوفاة إذا لم يعط العلاج فورًا. وتاريخيا قسمت الكوليرا إلى نوعين: الكوليرا الآسيوية، والكوليرا الأوروبية، والأخيرة أقل فتكًا من الأولى، وكانت تعد من الأمراض الموسمية التي طالما فتكت بأوروبا في أشهر الصيف والخريف. أما الكوليرا الآسيوية فهي مرض متوطن معد في منطقة امتدت من بومباي حتى جنوب الصين، ومنشؤها الهند البريطانية ومركز انتشارها بنجلاديش السفلى المطلة على الأنهار الكبرى، خاصة دلتا نهر الغانج (Ganges River)، ثم تتجاوز الحدود الضيقة متوجهة إلى الغرب عبر طريقين رئيسين: الطريق البري: وهو شمال الهند، أفغانستان، إيران، آسيا الوسطى. الطريق البحري: وهي =

ادّعت أن الحجاز هو موطن الكوليرا، بل وأن ماء زمزم هو أكبر مصدر للوباء[٢].

ويبدو أنّ بريطانيا لم تقنع بالامتيازات[٣] التي حصلت عليها من الدولة العثمانية بل سعت لرفع مستوى سقف هذه

= سواحل البحر الأحمر، مصر، البحر الأبيض المتوسط. فضلاً عن أن خليج البصرة كان أحد أهم الأبواب التي نفذت منها الكوليرا إلى الغرب. انظر: منظمة الصحة العالمية:

www.who.int/ar.

يلدز، جولدن صاري: الحجر الصحي في الحجاز ١٨٦٥-١٩١٤م، ترجمة عبدالرزاق بركات، (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، ص٢١-٢٢.

(٢) يلدز، الحجر، ص٧. لمعرفة المزيد حيال ما ذكر عن ماء زمزم والرد عليه انظر المرجع نفسه، ص١٧٠-١٧٧.

(٣) الامتيازات الأجنبية: هي في معناها الفعلي والتطبيقي في الدولة العثمانية الاستثناءات الجمركية، والاجتماعية، والقضائية التي كان يمنحها السلطان العثماني لرعايا دولة أجنبية بناءً على معاهدة أو اتفاقية، نصت معاهدة الامتيازات الأجنبية التي عقدت بين الدولة العثمانية وفرنسا عام (٩٤٢هـ/ ١٥٣٦م) في مادتها الخامسة عشرة على أن تستفيد بريطانيا من الامتيازات - التي منحها السلطان سليمان القانوني لرعايا فرنسا في الدولة العثمانية - شرط التصديق على المعاهدة، واستمرت السفن البريطانية تبحر في الموانئ العثمانية تحت الأعلام الفرنسية، وفي عام (٩٦١هـ/ ١٥٥٣م) استطاع التاجر الإنجليزي أنطوني جنكنسن (Anthony Jenkinson) الحصول على موافقة من السلطان سليمان للاتجار داخل ممتلكات الدولة العثمانية على قدم المساواة مع البنادقة والفرنسيين، وفي عام (٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م) عُقدت أول معاهدة امتيازات بين بريطانيا والدولة العثمانية ضمنت من خلالها بريطانيا حق تعيين قناصل في أملاك الدولة العثمانية لتولي شؤون القنصلية وحماية رعاياها في الدولة العثمانية. انظر: الشناوي، عبدالعزيز، الدولة العثمانية =

الامتيازات بالوسائل الممكنة كافة، واتخذت لذلك كثيرًا من الذرائع كلما لاحت لها الفرصة. وكان تدني المستوى الصحي في الحجاز وظهور موجات من وباء الكوليرا خلال مواسم الحج أحد أهم هذه الفرص التي حرصت بريطانيا على اقتناصها مع تغطية تحركاتها في هذا المضمار بثوب طرزته في ظاهره بالنزعة الإنسانية والرغبة في تحسين الأوضاع الصحية في الحجاز، أما في باطنه فقد تلاقت خيوط الرغبة في الهيمنة على شؤون الحج مع الرغبة في التوغل في الحجاز بهدف استغلال المكانة الإستراتيجية والاقتصادية لتلك المنطقة المقدسة، خاصة مع بزوغ فجر حركة الجامعة الإسلامية التي تبناها السلطان عبدالحميد الثاني(٤)، حيثُ لا يخفى على أحد الدور السياسي لمكة المكرمة كمركز لتجمع

= دولة إسلامية مفترى عليها، (القاهرة: الأنجلو المصرية، د. ت)، ج٢، ص٧١٤-٧٢٤.

Shaw, S.J: History Of The Ottoman Empire and Modern Turkey, Empire of Gazis, The Rise and Decline if the Ottoman Empire 1280-1800, (Cambridge: Cambridge University Press, 1976) Vol 1, P.97.

(٤) تولى السلطان عبدالحميد الثاني السلطنة عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م وأطماع الدول الأوروبية قد بلغت أوجها واعتبر نفسه مسؤولاً عن مواجهة هذه الأطماع وإيجاد حل لمشكلتها، واتخذ من حركة الجامعة الإسلامية سلاحا أيديولوجيا لمقاومة الأطماع الأوروبية. انظر: مصطفى، أحمد عبدالرحيم: في أصول التاريخ العثماني، (بيروت: دار الشروق، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م)، ص٢٤٧-٢٥٤؛ مذكرات السلطان عبدالحميد، تقديم وترجمة محمد حرب، الطبعة الثالثة، (دمشق: دار القلم، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م)، ص١٤٧-١٤٨.

المسلمين كافة من أقطاب الأرض، ومن ضمنهم المسلمون الهنود الخاضعون للاحتلال البريطاني آنذاك[٥]. وقد تنبهت الدولة العثمانية لخطورة هذه التحركات الأوروبية، خاصة البريطانية منها وسعت لإجهاضها رغم الأزمات السياسية والاقتصادية التي كانت تمر بها.

ظهر وباء الكوليرا في الحجاز لأول مرة عام (١٢٤٦هـ/ ١٨٣١م)[٦] الأمر الذي أدرج الحجاز ضمن جدول أعمال السياسة الدولية، منذ ذلك التاريخ حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى عام (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)، عندما احتلت

(5) F.O 195/1375 (236533) Jeddah, April 23, 1881. Al-Amr, Saleh Muhammed: The Hijaz Under Ottoman Rule 1869-1814 Ottoman Vali, The Sharif of Mecca, and The Growth of British Influence, Riyad University, 1978, P 118-125.

(٦) ذكرت المؤرخة التركية جولدن يلدز في كتابها (الحجر) أن أول ظهور لوباء الكوليرا في الحجاز كان عام (١٢٤٦هـ/ ١٨٣١م)، وبالرجوع إلى (خلاصة الكلام) للمؤرخ الحجازي المعاصر للأحداث أحمد زيني دحلان (١٢٣٢-١٣٠٤هـ/ ١٨١٦-١٨٨٦م) وجدنا أنه أشار إلى أول ظهور للوباء في الحجاز بعبارة "توفي بمكة سنة ست وأربعين بمرض الوباء بالإسهال والقيء وكانت تلك السنة أول السنين التي حدث فيها ذلك الوباء بمكة ولم يعرفه الناس قبل تلك السنة ثم بعد هذه السنة تكرر مجيئه بمكة مرات"، أما المؤرخ المكي أحمد السباعي فقد أشار إلى هذا الوباء القاتل على حد قوله في كتابه (تاريخ مكة): "وفي عهده - محمد بن عبدالمعين بن عون (١٢٤٣-١٢٥٢هـ/ ١٨٢٧-١٨٣٦م) - انتشر وباء فتاك قاتل كان يصيب الناس بالقيء والإسهال ثم يقضي عليهم وقد ظل يعاود الناس الفينة بعد الأخرى الى عدة سنوات كان أهمها ١٢٤٦هـ"، ويبدو عدم دقة السباعي عند تناول تاريخ بدء الوباء في مكة رغم أنه اعتمد في معلوماته على (خلاصة الكلام) لأحمد زيني دحلان، وقد تناول الموضوع نفسه المؤرخ المصري =

بريطانيا جزيرة قمران[٧] عام (١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م)[٨]، وسواحل الحجاز. فأسدلت بذلك الستار على مرحلة مهمة من مراحل تجاذب القوى بين الدول الأوروبية - تزعمتها بريطانيا - والدولة العثمانية.

= محمد البتنوني في كتابه (الرحلة الحجازية) قائلاً: "إن الكوليرا لم تظهر في مكة إلا سنة ست وأربعين ومائتين وألف هجرية أي في نحو سنة ١٨٢٥م"، والواقع أنه أخطأ في التوفيق بين التاريخ الهجري والميلادي، وعليه فإننا نؤكد أن بداية ظهور الوباء في الحجاز كان في عام (١٢٤٦هـ) الموافق (١٨٣١م) وفقًا لما ذكره المؤرخ الحجازي المعاصر للأحداث أحمد زيني دحلان. انظر: يلدز، الحجر، ص١٣٩؛ دحلان، أحمد زيني: خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام، (القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٠٥هـ)، ص٣٠٨-٣٠٩؛ السباعي، أحمد: تأريخ مكة؛ دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، (مكة المكرمة: مطابع الصفا، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ج٢، ص٥١٩؛ البتنوني، محمد لبيب: الرحلة الحجازية، الطبعة الثالثة، (الطائف، مكتبه المعارف، د. ت)، ص٦٣؛ المكي، عبدالفتاح حسن رواه: تاريخ أمراء البلد الحرام عبر عصور الإسلام، (الطائف: المعارف، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م)، ص٣٦٦-٣٦٨.

(٧) جزيرة قمران: تقع هذه الجزيرة ذات الموقع الإستراتيجي المهم في الملاحة الدولية في البحر الأحمر إلى الشمال الغربي من ميناء الحديدة الميناء اليمني، قبالة الساحل الغربي للصليف، أنشأ بها العثمانيون محجرًا صحيًا للحجاج. للاستزادة انظر: المقحفي، ابراهيم أحمد: معجم المدن والقبائل اليمنية، (صنعاء: دار الكلمة، ١٩٨٥م)، ص٣٥٠.

(٨) حسن، إبراهيم محمد: البحر الأحمر في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨م، (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٨م)، ص١٧١؛ الحميد، عبداللطيف بن محمد: البحر الأحمر والجزيرة العربية في الصراع العثماني البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى، (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م)، ص٣١٦.

اعتبر وباء الكوليرا في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي وباءً خطيرًا تعاقب في موجات متلاحقة واختفى بعض السنين. وكان أول ظهور له في الحجاز عام (١٢٤٦هـ/ ١٨٣١م) كما ذكر آنفا، ثم ظهر مرة أخرى ظهورا خفيفًا في الأعوام (١٢٥٣هـ/ ١٨٣٨م)، و(١٢٥٤هـ/١٨٣٩م)، و(١٢٥٥هـ/١٨٤٠م)، وبشدة في عام (١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م)[٩].

تلا ذلك ظهور خفيف للكوليرا في الحجاز في الأعوام (١٢٦٧هـ/ ١٨٥١م)[١٠]، و(١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م)، و(١٢٧٣هـ/ ١٨٥٧م). ولم تجد الدولة العثمانية بدًا من اتخاذ بعض الإجراءات اللازمة لمنع انتشار الوباء، ولهذا فرَضت في عام (١٢٧٥هـ/ ١٨٥٩م) على كل سفينة حجاج تدخل المياه العثمانية وجود طبيب مرافق[١١]. غير أن ذلك لم يمنع انتشار الوباء في عام (١٢٧٦هـ/ ١٨٦٠م)، ثم في عام

(٩) اعتبر الأطباء الأوروبيون وباء الكوليرا عام (١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م) ثاني وباء خطير يظهر في الحجاز بعد وباء الكوليرا الذي ظهر في عام (١٢٤٦هـ/ ١٨٣١م)، حيث ذكروا أنه أودى بحياة ما يقارب من خمسة عشر ألف مسلم وامتد انتشاره عن طريق الحجاج إلى إيران ومصر وإستانبول. انظر: يلدز، الحجر، ص٤٣-٤٤.

(١٠) طبق العثمانيون قوانين الحجر الصحي التي وضعت في مؤتمر باريس الأول، والذي انعقد خلال عام (١٢٦٧هـ/ ١٨٥١م) واعتبر أول مؤتمر صحة عالمي، إلا أن إصابات الكوليرا ظلت في ارتفاع. انظر: أوكسنولد، وليم: الدين والمجتمع والدولة في جزيرة العرب الحجاز تحت الحكم العثماني ١٨٤٠-١٩٠٨م، ترجمة عبدالرحمن العرابي، (جدة: مركز النشر العلمي جامعة الملك عبدالعزيز، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م)، ص١٠٤.

(١١) يلدز، الحجر، ص٤٤.

(١٢٨١هـ/ ١٨٦٥م)، حيث انتشر بصورة شديدة، الأمر الذي أسفر عن عدد كبير من الوفيات، بل امتد إلى خارج الحجاز[١٢]. فدفع ذلك الدول الأوروبية إلى إثارة قضية مهمة وهي قضية الحجر الصحي في البحر الأحمر[١٣] حتى إنها أصبحت أحد أهم محاور السياسة الأوروبية، ولهذا دعت فرنسا[١٤] إلى عقد مؤتمر حول قضية مكافحة وباء الكوليرا،

(١٢) نقل وباء الكوليرا من الحجاز إلى مصر عام (١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م) بسبب تصريح كاذب أدلى به ربان السفينة البخارية البريطانية سيدني Sydney القادمة من جدة والتي سمح لها بدخول ميناء السويس، على الرغم من أنه كان قد توفي على متنها خلال الرحلة عدد من المصابين، وفي ٢١ مايو أي بعد يومين من وصولها إلى السويس انتشرت الكوليرا، وقد واصل الحجاج سفرهم من السويس إلى الإسكندرية في القطار لأن قناة السويس لم تكن قد شقت بعد، وظهرت الكوليرا في ٢ يونيو وحصدت في مصر ما يقارب ٦٠ ألف شخص خلال ثلاثة أشهر، ومن هناك اجتاح الوباء أوروبا، وآسيا الصغرى، ونيويورك ... ولم يختف إلا في عام (١٢٩١هـ/١٨٧٤م). انظر:

F.O 195/879 (236389), Jeddah, May 12, 1865.

البقاعي، محمد خير: "الحج إلى مكة المكرمة وانتشار الأوبئة لآخيل - أدريان بروست"، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، المجلد الثامن، العدد الأول، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م)، ص٢٣٤؛ يلدز، الحجر، ص٤٥-٤٦.

(١٣) نُفذ أول حجر صحي في الدولة العثمانية عام (١٢٤٦هـ/ ١٨٣١م) في مضيق البسفور على السفن القادمة من البحر الأسود. انظر: يلدز، الحجر، ص٣٠-٣١.

(١٤) قلصت فرنسا قنصليتها في جدة إلى درجة القائم بأعمال القنصل بسبب وباء الكوليرا الذي انتشر في حج عام (١٢٨١هـ/ ١٨٦٥م )، وعيّن الطبيب ساهناب (Sehnepp) في منصب نائب القنصل، وكان قد شغل منصب طبيب صحة في الحكومة الفرنسية، ويبدو أن =

فوافق السلطان العثماني عبدالحميد الثاني على عقد المؤتمر شريطة أن يعقد في إستانبول، وهو ما حدث. عقد المؤتمر الصحي في إستانبول عام (١٢٨٢هـ/ ١٨٦٦م) وتوصل إلى أن موطن الكوليرا الأساسي هو الهند، وقد انتشر الوباء في الحجاز من خلال الحجاج القادمين من تلك المناطق . ومن الحجاز انتقل عبر البحر الأحمر إلى مصر وأوروبا. كما قرر المؤتمر إسناد حماية أوروبا من الأمراض الجنوبية إلى الدولة العثمانية، وإنشاء حجر صحي كبير في مضيق باب المندب الذي يعد بوابة البحر الأحمر لفحص الحجاج قبل السماح لسفنهم بدخول مياه البحر، مع إقامة نقاط للحجر الصحي على طول سواحل الحجاز، بالإضافة إلى تشكيل هيئة تكلف بالاهتمام بالوضع الصحي بمكة المكرمة[١٥].

منذ عام (١٢٨٢هـ/ ١٨٦٦م) بدأت الدولة العثمانية بإرسال هيئات صحية متعاقبة إلى الحجاز للقيام باتخاذ الإجراءات اللازمة لضمان سلامة الحجاج قبل بدء موسم الحج[١٦]. ووضعت قرارات المؤتمر موضع التنفيذ، إلا أن ذلك لم يحل دون انتشار الوباء في الأعوام (١٢٨٨هـ/ ١٨٧٢م)،

---

= السبب في تعيينه كان بهدف أن تكون تقاريره دقيقة عن الحالة الصحية في الحجاز. انظر:

F.O 195/879 (236389), Jeddah, January 31, 1866.

(15) F.O 195/879 (236389), Jeddah, April 24, 1868.

البقاعي، محمد خير، الحج إلى مكة، ص٢٢٤؛ يلدز، الحجر، ص٤٦-٤٧.

(16) F.O 195/879 (236389), Jeddah, March 6, 1866. F.O 195/879 (236389), Jeddah, May 8, 1866. F.O 195/879 (236389), Jeddah, May 5, 1867.

و(١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م)، و(١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م)، و(١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م)، و(١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م)[١٧]، و(١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م)[١٨]. ولعل ذلك يعود إلى أسباب كثيرة أهمها استمرار تدني الأوضاع الصحية في الحجاز[١٩]، رغم الإجراءات التي اتخذت من قبل السلطات المحلية في الحجاز، وبإشراف ومتابعة من السلطة المركزية في إستانبول، مع عدم إغفال التقدم الذي حدث في وسائل النقل البحري، وارتفاع أعداد الحجاج، بالإضافة إلى السرعة التي كان ينتشر بها الوباء.

(17) F.O 195/956 (236394), Jeddah, March 2, 1872. F.O 195/1193 (236371), Jeddah, January 5, 1878.

أوكسنولد، الدين، ص١٠٥-١٠٧؛ يلدز، الحجر، ص١٣٩-١٤٠.

(١٨) سوف نتوقف زمنيًا وتاريخيًا عند عام (١٣٠٠هـ/١٨٨٣م ) دون تناول الأعوام التي تلت ذلك وانتشر فيها وباء الكوليرا بالحجاز؛ لأن الدراسة ستركز على تحليل ما ورد في تقرير القنصلية البريطانية في جدة عن موسم حج عام (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م).

(١٩) يرجع تدني الأوضاع الصحية في الحجاز إلى عدة أسباب، أهمها: محدودية النظافة، بالإضافة إلى صعوبة توافر المياه، وفي حال توافرها غالبًا ما تكون ملوثة، فضلاً عما يترتب على رمي الذبائح والأضاحي في الطرقات في مواسم الحج، وعدم وجود المراحيض الصحية للحجاج وما يمكن أن تسهم به حرارة الجو الشديدة في زيادة هذه الأحوال سوءًا. ولمزيد من المعلومات انظر:

F.O 195/1251 (236235), Jeddah, May 29, 1879.

إسماعيل، صابرة مؤمن: جدة خلال الفترة ١٢٨٦-١٣٢٦هـ/١٨٦٩-١٩٠٨م: دراسة تاريخية وحضارية في المصادر المعاصرة، (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٨هـ)، ص١٤٩-١٦١؛ بيركهارت، جون لويس: رحلات إلى شبه الجزيرة العربية، ترجمة هتان عبدالله، (بيروت: الانتشار العربي، ٢٠٠٥م)، ص٢٠١-٢٠٥؛ أوكسنولد، الدين، ص١٠٢-١٠٣.

واستغلت بريطانيا تكرار انتشار هذا الوباء في مواسم الحج السابقة الذكر لإيجاد قناعة لدى الرأي العام الأوروبي - من خلال الصحافة الأوروبية - بأن الحجاز هو موطن وباء الكوليرا، وأن الدولة العثمانية عاجزة عن حماية الوضع الصحي للحجاج في الإقليم، فطرحت فكرة إسناد متابعة الأوضاع الصحية فيه إلى هيئة مختلطة(٢٠)، حتى تتمكن من التدخل بصورة مباشرة في شؤون الحجاز(٢١). وانطلاقًا من ذلك أخذت بريطانيا ترسل فقراء الهند ومتسوليها وعجزتها إلى الحجاز في كل عام(٢٢)، الأمر الذي دفع بالسلطان

(٢٠) عند بدء تنفيذ نظام الحجر الصحي في الدولة العثمانية لم يكن بها أطباء متخصصون، ولهذا استعانت بالخبراء الأجانب الأوروبيين الذين أصبحوا فيما بعد أعضاء في مجلس الحجر الصحي بإستانبول، وكان لنواب السفراء حق المشاركة في قرارات المجلس، الأمر الذي أدى إلى أن يتحول مجلس الحجر الصحي -الذي كان مؤسسة عثمانية- إلى مؤسسة مختلطة بالتعبير الأوروبي، ولم تكتف الدول الأوروبية بذلك بل حاولت السعي للحصول على موافقة الدولة العثمانية على إرسال هيئة طبية مختلطة للحجاز لمعالجة الأوضاع الصحية فيه، ولما لم توافق الدولة العثمانية على ذلك بدأت الدول الأوروبية في وضع قيود على رعاياها من الحجاج، بل وذهبت إلى أبعد من ذلك في بعض الأحيان بمنع رعاياها من الحجاج من الذهاب لأداء فريضة الحج. انظر:

F.O 195/879 (236389), Jeddah, May 5, 1867.

يلدز، الحجر، ص١٤٣، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٢.

(٢١) يلدز، الحجر، ص١٣٩-١٤٣.

(٢٢) في تقرير القنصلية البريطانية عن موسم حج عام (١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م) وردت قائمة كاملة بأسماء المتسولين الهنود، وبلغ عددهم في ذلك العام (٤٩٥٥) متسولاً.

F.O 195/1610 (236534), Jeddah, February 15, 1888.

العثماني في بعض الأحيان إلى أن يتحمل تكاليف رحلة العودة لمثل هؤلاء الحجاج بهدف إجلائهم عن الحجاز بأقصى سرعة(٢٣).

والواقع أن الدولة العثمانية لم تألُ جهدًا في سبيل معالجة تلك الأوضاع، على الرغم من تعدد العوامل الداخلية والخارجية التي حالت في معظم الأحيان دون تحقيق ذلك، ومنها:

- ضعف النفوذ العثماني في الحجاز؛ مما أدى إلى ازدياد الصراع بين شريف مكة المكرمة والولاة العثمانيين.
- معارضة بعض أهالي الحجاز الإجراءات الصحية، مثل التبخير، والتعقيم(٢٤).
- سوء التنسيق بين الإدارة المحلية في الحجاز، والمركزية في إستانبول.
- عدم وعي بعض الحجاج بالقواعد الصحية العامة، ورفضهم الالتزام بها.
- جشع معظم شركات النقل البحري حيث كانت تنقل أعدادًا كبيرة من الحجاج تفوق السعة الفعلية لسفنها، فضلاً عن اصطحاب بعض ملاحي السفن للحيوانات والفحم مع الحجاج؛ مما أدى إلى انتشار الأمراض والأوبئة(٢٥).

(٢٣) يلدز، الحجر، ص١٢١.

(٢٤) لمعرفة المزيد عن معارضة الأهالي في الحجاز للإجراءات الصحية المتخذة من قبل السلطات المحلية في الحجاز. انظر: يلدز، الحجر، ص٢٥٣-٢٥٨؛ أوكسنولد، الدين، ص١٠٩.

(25) F.O 195/1415 (236533), Jeddah, March 21, 1882.

- تدليس بعض ملاحي السفن على إدارة المحاجر، وتقديم شهادات براءة مزورة تفيد بخلو الحجاج الذين يحملونهم من الأوبئة[٢٦].

لقد تناولنا في العرض السابق تاريخ وباء الكوليرا في الحجاز منذ بداية ظهوره عام ١٢٤٦هـ/١٨٣١م حتى عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م، وهو تاريخ التقرير الذي بين أيدينا، والذي أعده نائب القنصل البريطاني في قنصلية جدة الدكتور عبدالرازق (Dr. Abdurrazzack) الهندي الأصل، والذي شغل هذا المنصب في الفترة من عام (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م) حتى مقتله عام (١٣١٢هـ/ ١٨٩٥م) على يد مثيري الشغب في جدة، الذين اعترضوا على بعض الإجراءات الصحية التي اتخذتها السلطات المحلية في الحجاز، وهاجموا القنصليات ومن ضمنها القنصلية البريطانية، ونتج عن ذلك الهجوم مقتل نائب القنصل الدكتور عبدالرزاق[٢٧].

(٢٦) كانت الحالة الصحية للحجاج تسجل من قبل ملاحي السفن في وثيقة صحية يطلق عليها (Partika)، وهي ثلاثة أنواع بحسب حالة الحجاج في السفن، إما أن تكون خالية، أو موبوءة، أو مشتبهًا فيها. انظر: يلدز، الحجر، ص٤٥.

(٢٧) لفت نظرنا أن الدكتور صالح العمرو في كتابه "The Hijaz" أشار في الجدول الذي أعده للممثلين الدبلوماسيين في القنصلية البريطانية بجدة إلى أن عبدالرزاق قد شغل عدة مناصب في القنصلية، وهي:

Vice - Consul, Acting Consul, and Consul; from 17 Aug." 1882 Until Murdered in The Neighbours - Hood of Jidda on 30 May 1895".

ولكن من خلال مجموعة الوثائق البريطانية التي اطلعنا عليها، وهي لأعوام مختلفة، وجدنا أنه كان يوقع على الخطابات والتقارير بصفته نائب القنصل (Vice-Consul)، وذلك حتى مقتله. انظر:

Al-Amr, The Hijaz, P254-255.

يلدز، الحجر، ص٢٥٥.

وتقرير موسم حج (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م)، مؤرخ بـ ١٥ يناير ١٨٨٤م (١٦ ربيع الأول ١٣٠١هـ)، وكتب على الصفحة الأخيرة منه أنه مرسل من د. عبدالرازق إلى القنصل جاكو (Vice Consul Dr Razzack to Consul Jago)[٢٨]، وهو مُكون من ٤٩ صفحة من الحجم الكبير، وقسمت موضوعاته إلى أجزاء، وظهرت وجهة نظر مُعد التقرير بوضوح في معظم الموضوعات التي تناولها في التقرير، كما ظهر مدى تعصبه لأصوله الهندية، وحرصه على خدمة المصالح البريطانية في الحجاز.

أرفق معد التقرير الدكتور عبدالرزاق ثلاث قوائم إحصائية، الأولى والثانية وضحتا أعداد المتوفين في موسم حج عام (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م)، أما الثالثة فهي قائمة بأعداد

(٢٨) كُتب على أول صفحة في التقرير بعد العنوان (part II) أي الجزء الثاني وقد حاولنا جاهدين الحصول على الجزء الأول (part I). ولكن لم نوفق. كما كتب على آخر صفحة منه من نائب القنصل د. عبدالرزاق (Dr. Razzack Vice-Consul) إلى القنصل جاكو (Consul Jago) والمقصود به القنصل البريطاني في جدة توماس سمبسون جاكو (Thomas Sampson Jago) الذي ذكر الدكتور صالح العمرو في كتابه (The Hijaz) أنه شغل هذا المنصب من ١ إبريل إلى ١٤يوليو ١٨٨٢م (١٢ جمادى الأولى إلى ٢٨ شعبان ١٢٩٩هـ) ولكن هذه المعلومة يشوبها شيء من عدم الدقة، فقد وجدنا من خلال الوثائق التي اطلعنا عليها والتي حملت توقيعه أنه شغل المنصب حتى عام (١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م)، ويمكن الاطلاع عليها وهي:

F.O 195/1482 (236378), Jeddah, September 27, 1884. F.O 195/1547, Jeddah, November 22, 1886. F.O 195/158 (236571), Jeddah, November 24, 1887. Al-Amr, The Hijaz, P254-255 F.O 195/1482 (236378), Jeddah, January 15, 1884.

وأسماء السفن التي نقلت الفقراء من الحجاج الهنود إلى الحجاز بعد أن تبرع أثرياء الهند لهم بدفع نفقات رحلة ذهابهم.

وعمومًا فقد أمدتنا مثل هذه التقارير المحفوظة في مكتب السجلات البريطانية العامة (British Public Record Office)، والتي كتبت بأقلام القناصل البريطانيين أو نوابهم في قنصلية جدة بمعلومات قيمة، إلا أن هذا لم يمنع وقوع بعضهم في الأخطاء أو المبالغات التي كانت إما مقصودة أو غير مقصودة، بسبب عدم تأكدهم في بعض الأحيان من صحة المعلومات، أو بسبب إخضاع تلك المعلومات لعواطفهم، أو مصالحهم الشخصية، بالإضافة إلى اعتماد بعضهم على الرواة الذين قد يصدقون أو يكذبون أو يبالغون، وفي الصفحات التالية سنستعرض محتويات التقرير بعد أن ترجمناه، وسوف نعلق في الهوامش على ما ورد فيه بكل موضوعية، مع الاستناد في ذلك إلى الوثائق والمصادر التاريخية المتعلقة بالموضوع والمعنية بالفترة ذاتها.

**النص المترجم:**

Jeddah, January 15,1884 Report on The Haj 1883

By The British Vice-Consul Dr Razzack part II

جدة، ١٥ يناير١٨٨٤م ، تقريرعن موسم حج عام ١٨٨٣م

لنائب القنصل البريطاني د. عبدالرزاق - الجزء الثاني

تميز حج عام ١٨٨٣م (١٣٠٠هـ) بحادثة ليس لها مثيل في تاريخ هذا الاحتفال الكبير المقدس[٢٩] في كل أنحاء العالم الإسلامي منذ بدايته على يد محمد ﷺ من ١٣٠٠ عام مضت، وأعني بذلك حادثة التدافع التي وقعت بين ركاب سفينتين محملتين بالحجاج من الهند والسفينة المصرية المنصورة (Mansourah) بعد وصولهما، وإنزال هذه السفن الحجاج في ميناء جدة[٣٠].

إن الحماس الديني هو الذي دفع الحجاج لترك ديارهم وأوطانهم وكل ما لديهم من عزيز لركوب البحر الموحش[٣١]،

(٢٩) الاحتفال الكبير هو "الحج الأكبر"، والمقصود به في الغالب هو يوم عرفة في حج عام (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣ م).

(٣٠) كان الحجاج يسلكون طريقين في البحر حتى يصلوا إلى موانى الحجاز، أولهما في جنوب البحر الأحمر، وتدخل إليه السفن من مضيق باب المندب، وثانيهما في الشمال وتدخل إليه السفن من قناة السويس، وقد احتلت السفن البريطانية مكان الصدارة في البحر الأحمر، سواء في التجارة البحرية أو في نقل الحجاج، ثم تلتها السفن الهولندية، ثم الفرنسية، وبعدها ولفترة محدودة العثمانية، وكان الحجاج الهنود أكثر الحجاج القادمين عن طريق البحر عددًا.

(٣١) على الرغم من أن معد التقرير مسلم، ويعلم أن الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، ويجب على المسلم أداؤه إذا اكتملت شروطه، إلا أنه رغم ذلك أرجع أداء المسلمين لهذا الركن إلى الحماس الديني (Religions Enthnssasm).

ولا شك أن هذا الوضع كان يسبب لهم نوعًا من الصدمة إضافة إلى خوفهم من أن يفوتهم الحج أو أداء أحد مناسكه. لقد أتى الحجاج الهنود على متن سفينتين هما: (Roehampton) و(Clan Alpine) من بومباي، وهما السفينتان اللتان حدث التدافع فيهما.

تلقى مسؤولية الحادثة على عاتق المسؤولين عن السفينتين الذين كان يعلمون بقصر المدة المتبقية للبدء في أداء مناسك الحج وطبيعة قواعد الحجر الصحي الذي لابد من إتمام فترته عند الوصول إلى منطقة باب المندب[٣٢] وهي القواعد التي تطبق كل عام، لذلك يجب على ملاحي السفن مستقبلاً ألا يسمحوا لسفن الحجاج أن تأتي من بومباي عندما لا يتبقى وقت كاف لتأدية الحجر الصحي، ثم الوصول لتأدية الحج[٣٣]. وبصرف النظر عن الحالة السيئة التي كان يعاني منها الحجاج بسبب انتهاك ملاحي السفينتين القواعدَ فقد ترتب عليه الاصطدام بالسلطات المحلية، وعليه فمن الأفضل عدم

(٣٢) مضيق باب المندب: هو الفتحة الجنوبية لمدخل البحر الأحمر، أنشأ العثمانيون بالقرب منه محجرًا صحيًا للحجاج والمسافرين القادمين من جاوة والهند. انظر: المقحفي، معجم المدن، ص٤١١؛ يلدز، الحجر، ص٦٧.

(٣٣) من الواضح أن معد التقرير يلقي باللوم في هذه الحادثة على المسؤولين في ميناء بومباي - الواقع تحت الاحتلال البريطاني آنذاك - بسبب سماحهم لسفن نقل الحجاج بالإبحار، على الرغم من علمهم بأن الفترة المتبقية للوصول إلى ميناء جدة قصيرة، وقد يترتب على ذلك تأخر الحجاج في الوصول، خاصة إذا ما طبقت إجراءات الحجر الصحي على سفنهم، وقد تصل مدة الحجر الصحي إلى خمسة عشر يومًا تزيد أو تنقص حسب قرار جهة الحجر، والمعروف أن فريضة الحج مرتبطة بزمان ومكان محددين.

تعريض هذه القنصلية للمساءلة عن أضرار قد تتحمل مسؤوليتها[٣٤].

إن خرق القواعد المعروفة من قبل أي ملاح سفينة - لنقل الحجاج - يؤدي إلى إرغامه على احترامها بالقوة، كما حدث في السفينة (Clan Alpine) التي اشتعلت فيها النيران على يد أحد المحاربين الأتراك[٣٥] في جزيرة قمران، مما عرض السفينة وحياة الحجاج للخطر. ولم يكن من الملائم قيام أحد الأتراك بإشعال النار في سفينة بريطانية في حين أن الجنود الأتراك كانوا يعترضون على إنزال الرعايا البريطانيين من الحجاج الهنود وهم يحملون بنادقهم، حتى لو أنها كانت فارغة من الذخيرة[٣٦].

أما فيما يتعلق بالمعلومات الخاصة بالحكومة الهندية[٣٧]، فأرجو إرسال نسخ من التقارير التي قدمها النقيب مونكريف (Captain Moncrieff)[٣٨] - القنصل المنتدب في قمران

(٣٤) يحاول معد التقرير توجيه رسالة بين السطور لحكومته بضرورة ألا يتسبب انتهاك ملاحي السفن البريطانية قواعد الحجر الصحي إلى دخول قنصلية جدة في صدام مع السلطات المحلية العثمانية.

(٣٥) ذكر معد التقرير اسم "المحاربين الأتراك" (Turkish Men of War)، وبعدها بعدة سطور ذكر "الجنود الأتراك" (Turkish Soljiers). وللدقة فقد أوردتها عند الترجمة كما ذكرت في التقرير.

(٣٦) لم نستطع التوصل إلى حقيقة حادثة قمران، ولكن يبدو أن السلطات العثمانية كانت تحظر على الرعايا البريطانيين من الحجاج الهنود اصطحاب الأسلحة معهم، ولو كانت فارغة.

(٣٧) المقصود حكومة الهند البريطانية.

(٣٨) شغل مونكريف (Moncrieff) منصب القائم بالأعمال في قنصلية جدة عام (١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م)، وبعدها شغل منصب قنصل في القنصلية =

وقتها - إلى السفارة في القسطنطينية[٣٩] من خلال هذه القنصلية، التي تعطي وصفًا كاملاً للوضع الذي حدث في قمران.

سأقدم تقريرًا مختصرًا عن الحالة الصحية للحجاج في جدة ومكة ومنى، وأيضًا عرفات التي رأيتها بنفسي هذا العام، والتي خرجت منها ببعض التفصيلات عن انتشار وباء الكوليرا. ويشكر مكتب الصحة الرئيس في المدينة، لأن جدة أصبحت مقارنة بالأعوام السابقه مدينة نظيفة، ولم يعانِ سواء الحجاج أو سكان المدينة من ازدحام المكان خلال موسمَ الحج[٤٠].

---

= البريطانية بسواكن، وتوفي بالقرب من جزيرة صقور (Sokor) عام (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م )، ولكن يبدو أنه قد انتدب إلى جزيرة قمران قبل وفاته، ويبدو أن الدكتور عبدالرزاق كان يرغب في الاطلاع على تفاصيل حادثة قمران من خلال تقرير مونكريف، ولهذا طلبه من حكومته. للاستزادة انظر: الغالبي، سلوى بنت سعد: "ملامح من أوضاع المسيحيين في جدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي من خلال وثائق الأرشيف البريطاني ١٨٦١-١٨٩٤م"، سلسلة مداولات علمية محكمة للقاء السنوي التاسع لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربي، المجلد ٩، (الرياض: جمعية التاريخ والآثار، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م)، ص٤٥٦-٤٥٨.

Al-Amr, The Hijaz, P 255.

(٣٩) القسطنطينية: المقصود بها إستانبول، ولكن القناصل ونوابهم كانوا يصرون في خطاباتهم وتقاريرهم على أن يطلقوا عليها اسم القسطنطينية، على الرغم من تغيير اسمها منذ فتحها السلطان العثماني محمد الفاتح في عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م. انظر: الصواف، فائق بكر: العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز (١٨٧٦-١٩١٦م)، (القاهرة: سجل العرب، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ص١٥-١٦.

(٤٠) لمعرفة المزيد عن مدينة جدة في تلك الفترة انظر: رفعت باشا، إبراهيم: مرآة الحرمين والرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية =

بلغ عدد الحجاج الذين وصلوا هذا العام (٢٧٢٦٣) حاجًا، منهم (١٠١٤٦) من الهنود، بينما بلغ عدد حجاج العام الماضي (٢٥٥٨٠) حاجًا، منهم (٩٦٣٠) من الهنود، ويتضح أن الوصول عن طريق البحر فيه زيادة هذا العام بلغت (١٦٨٣) حاجًا، فقد تجاوز عدد الحجاج عن العام الماضي بـ(٥٦١) حاجًا.

والعدد المذكور أعلاه يتضمن عدد الحجاج الذين شاركوا بالفعل في أداء مناسك الحج. وإذا أضفنا إلى هذا العدد (١٦٢٠) تأشيرة صدرت للمسافرين على السفينتين المذكورتين والذين وصلوا إلى مكة بعد الحج، يصل العدد الكلي للهنود هذا العام إلى (١١٧٦٦)، فإن الزيادة في عددهم عن العام الأخير سوف تصل إلى (٢١٣٦). وإذا كان الحجاج

= محلاة بمئات الصور الشمسية، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م)، ج١، ص٢١-٢٤؛ البقاعي، محمد خير: "رحلتي إلى مكة المكرمة (١٨٩٤م/ ١٣١٣هـ) للفرنسي جيل - جرفيه كورتلمون"، مجلة العرب، ج٩ و ١٠، (الرياض: العرب، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م)، ص٤٥٠؛ صابان، سهيل: "رحلة بروست إلى الحجاز عام ١٨٩٣م"، مجلة الفيصل، العدد ٢٧٠، (الرياض: دار الفيصل الثقافية، ١٤٢١هـ/ ١٩٩٩م)، ص١٢٣-١٢٤؛ المعبدي، مبارك محمد: النشاط التجاري لميناء جدة خلال الحكم العثماني الثاني ١٨٤٠-١٩١٦م، الطبعة الأولى (جدة: النادي الأدبي الثقافي، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م)، ص١٢٣-١٢٥؛ الأنصاري، عبدالقدوس: موسوعة تاريخ مدينة جدة، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار مصر للطباعة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ص١١٠-١١٣؛ الشعفي، محمد بن سعيد: التجارة الخارجية لمدينة جدة في العهد العثماني ١٨٤٠-١٩١٦م، الطبعة الأولى، (الرياض: د.ن، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)؛ بيركهارت، جون لويس: رحلات، ص١٥-٥٢؛ إسماعيل، صابرة مؤمن، جدة، ص٤٣-٦٣.

الأفغان والتركمان قد وصلوا إلى هنا عن طريق بومباي فسوف يكون العدد الصحيح للحجاج الهنود منخفضًا إلى حد كبير[٤١].

أعتقد أن عدد الحجاج الذين وصلوا برًا إلى قمران كان أقل من العام الماضي[٤٢]. وقد لاحظت أن عدد الأتراك، والمصريين، والمغاربة من الحجاج كانوا أقل من المعتاد،

(٤١) بمقارنة ما ورد في التقرير حيال عدد الحجاج القادمين بحرًا في عام (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م) مع بعض المصادر الأخرى وجدنا بعض الاختلافات البسيطة:

- ذكر معد التقرير أن عدد الحجاج بلغ (٢٥٥٨٠) حاجًا منهم (٩٦٣٠) حاجًا هنديًا.
- في إحصائية أوكسنولد التي اعتمد فيها على سجلات الدبلوماسيين الفرنسيين والبريطانيين ذكر أن عدد الحجاج (٢٦٠٠٠) حاج.
- ذكرت المؤرخة التركية يلدز أن عدد الحجاج (٢٥٥٧٢) حاجًا. ويبدو الاختلاف بسيطًا بين الإحصائيات.
- أما عدد حجاج القادمين عن طريق البحر عام (١٣٠٠ هـ/ ١٨٨٣م) فقد ذكر معد التقرير أنه بلغ (٢٧٢٦٣) حاجًا، منهم (١٠١٤٦) حاجًا هنديًا. بينما ذكر أوكسنولد أن عددهم بلغ (٢٧٠٠٠) حاج، ويبدو أن الفرق بسيط بين الإحصائيتين كما يظهر أن نسبة الحجاج الهنود كبيرة بالنسبة لبقية الحجاج من الجنسيات الأخرى.

انظر: أوكسنولد، الدين، ص٩٨-٩٩؛ يلدز، الحجر، ص٩٦-٩٧.

(٤٢) من المعروف أن قمران جزيرة، ورغم ذلك نجد أن معد التقرير قد ذكر "أن عدد الحجاج الذين وصلوا إلى قمران برًا أقل من العام الماضي"، وبسبب حرصنا على الدقة تمت الترجمة وفقًا لما ورد في التقرير:

(Who Arrivel in Camarans By Land).

وتأكدت من هذا عن طريق بعض المطوفين الذين استغربوا من عدم وصول حجاج من هذه الجنسيات ، والذين يتبرعون في مكة فور وصولهم إليها(٤٣).

لقد كان من الواضح في عرفات مدى فقر حجاج هذا العام، وهو الأمر الذي لاحظه كل فرد. وقدر عدد الحجاج في العام الماضي بـ (٧٥٠٠٠) حاج، أما هذا العام فلا يزيد عددهم عن (٦٠٠٠٠)، وتناثرت الخيام في المشاعر، ووجد بين كل مجموعة من الخيام مساحات واسعة بينما كانت مزدحمة في العام الماضي(٤٤).

لقد تجولت بينها، ولاحظت أنها تشغل حوالي ثلثي المكان، ولكن حرارة الجو والإرهاق أرغماني على التنازل عن فكرة التجول في المنطقة المتبقية. فمنذ الصباح حتى الساعة الثالثة بعد الظهر كانت الحرارة شديدة في عرفات، ولكن منذ الساعة الرابعة سقط مطر خفيف منعش أدى إلى

(٤٣) درج أثرياء المسلمين عامة وفيهم الأتراك، والمصريون، والمغاربة على التبرع للمدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة، أو إقامة الأوقاف، أو المدارس كنوع من التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة. انظر: صابان، سهيل: نصوص عثمانية عن الأوضاع الثقافية في الحجاز الأوقاف – المدارس – المكتبات، (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

(٤٤) بمقارنة ما أورده معد التقرير مع ما ذكره أوكسنولد بخصوص العدد الكلي لحجاج البحر والبر لموسمي حج عام (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م) وعام (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م) نجد أن هناك اختلافًا في عدد حجاج عام (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م)، حيث ذكر أوكسنولد أن عددهم بلغ (٧٠٠٠٠) حاج، أما في حج عام (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م) فقد تطابق العددان لدى الاثنين. انظر: أوكسنولد، الدين، ص٩٨.

تلطيف الجو خلال المساء. ولم ألاحظ أو أسمع من أي شخص وقوع إصابات بالكوليرا في عرفات[٤٥].

كانت منى هذا العام أقل قذارة من المعتاد، وأعتقد أن السبب في ذلك يرجع إلى انخفاض عدد حجاج هذا العام أكثر من كونه يرجع إلى جهود الإدارة المحلية في النظافة. حقيقة أنه كان يوجد فيها عدد قليل من العرب ينظفون الطرقات، إلا أن بقاء جمل ميت ملقى في الشارع الرئيس في واحد من أهم أجزاء المدينة لمدة تسع ساعات كان شاهدًا على أن الاهتمام بالنظافة ما زال محدودًا.

كانت الشوارع الرئيسة نظيفةً، كما أن أكوام المخلفات التي ألقيت في الشوارع الصغيرة أقل. أما أراضي المخيمات فقد كانت قذرة، وفيها التغوطات البشرية، ناهيك عن مخلفات الحيوانات التي ما تزال تشغل جزءًا منها[٤٦].

استخدمت مياه الصهاريج بدون مقابل، وأُحضرت كميات قليلة للاستخدامات الأخرى[٤٧]. وعثر في اليوم الأول في

---

(٤٥) يبدو أن بريطانيا قد استفادت جيدًا من إسناد منصب نائب القنصل إلى شخص مسلم مثل د. عبدالرزاق، رغبة منها في وجود عيون لها في مكة المكرمة والمشاعر المقدسة تسجل لها المعلومات في تقارير خاصة في أماكن يعد دخولها محظورًا على غير المسلمين من قبل السلطات العثمانية.

(٤٦) حاول معد التقرير التأكيد على استمرار تدني مستوى النظافة في مشعر منى، رغم أنه ذكر أنها في هذا العام (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م) أقل قذارة من المعتاد، ولكنه أظهر أن ذلك لا يعود إلى جهود السلطات المحلية في الحجاز، وإنما إلى انخفاض عدد الحجاج.

(٤٧) كانت مياه منى وعرفات تأتي عن طريق قنوات صغيرة متفرعة من عين زبيدة، ووجد في منى ثلاثة صهاريج كبيرة مغطاة، هي صهريج=

أحد هذه الصهاريج على مخلفات حيوان، وقال لي الدكتور نوري (Nouri)[٤٨] بعد ذلك بعدة أيام في مكة أنه فحص الصهاريج، وأمر بإغلاق ستين منها؛ لأنه وجد أن مياهها غير صالحة للشرب[٤٩].

وحقيقة أنا لا أستطيع أن أفهم لماذا لا يدرك الدكتور نوري والسلطات المحلية أهمية تنظيف هذه الصهاريج كل عام قبل بداية موسم الأمطار، ثم يتحقق من نقائها وإغلاقها بإحكام على ألا تفتح إلا في موسم الحج التالي.

= الحميدية، وصهريج الطوبجي، وصهريج غيتابلي، وكانت تملأ بالماء قبل الحج بأسبوع، لتوفير الماء للحجاج ولكن هذا لم يمنع محتكري المياه من بيع مياه غير صحية للحجاج. كما أنشئت في عرفات أحواض كبيرة بلغ عددها ثلاثة عشر حوضًا كانت تحت حراسة الجنود الأتراك، إلا أن تزاحم الحجاج عليها تسبب في تلوث مياهها العذبة. انظر: يلدز، الحجر، ص١٦٧-١٦٨.

(٤٨) شغل الدكتور نوري منصب مفتش الصحة في جدة، كما أنه كان المسؤول عن المحافظة على الأوضاع الصحية في مكة المكرمة ومنى. انظر:

F.O 195/1375 (236533), Jeddah, March 21, 1881. F.O 195/1583 (236571), Jeddah, March 23, 1887.

(٤٩) نرى أن عدد "Sixty" "ستين" صهريجًا مبالغ فيه فقد وجدنا بالبحث أن عدد الصهاريج في منى لم يكن يزيد عن ثلاثة صهاريج، أما عدد الصهاريج في مكة المكرمة فقد بلغ تسعة صهاريج، بينما ذكر محمد علي مغربي أن صهاريج مكة كانت عشرة. انظر: رفعت باشا، إبراهيم، مرآة الحرمين، ج١، ص٢٢٢-٢٢٣؛ يلدز، الحجر، ص١٦٦-١٦٨؛ مغربي، محمد علي: أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر والخامس عشر الهجري، الطبعة الأولى (جدة: دار البلاد، ١٤١٤هـ)، ج٤، ص١٦١.

تبرع نواب (Nawab) من رامبور (Rampura) بإنشاء فرع من عين زبيدة[٥٠]، ولكن يؤسفني القول بأن الوالي[٥١] قد رفض هذا التبرع ببساطة، وعلمت بأن السبب يعود في ذلك إلى أن نواب طلب أن تحمل هذه القناة اسمه، كما اشترط أن يشرف رجاله على العمل فيها ودفع النفقات كافة[٥٢].

(٥٠) لقد درج أثرياء الهنود على التبرع لمكة المكرمة تقربًا إلى الله، ومن ذلك جهود بعض الأثرياء من الهنود عام (١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م) في تشكيل لجنة لجمع الإعانات من الأقطار الإسلامية كافة لإنفاقها في إصلاح العيون وكان من أعضاء اللجنة الشيخ رحمة الله الهندي. ولمزيد من المعلومات. انظر: رفعت باشا، إبراهيم، مرآة الحرمين، ج١، ص٢٢٢-٢٢٣؛ مغربي، محمد علي، أعلام الحجاز، ج٤، ص١٦٠-١٦٢.

(٥١) الوالي المقصود به هو عثمان نوري باشا: عين واليًا على الحجاز وشيخًا للحرم عام (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م) وبقي في المنصب حتى عام (١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م)، منح رتبة المشيرية عام (١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م) تقديرًا للخدمات التي قدمها، مد جدة بالمياه من منطقة الرغامة بواسطة أنابيب من الحديد وعرفت وقتها باسم (عين الحميدية) نسبة الى السلطان عبدالحميد الثاني، ثم عرفت باسم (عين الوزيرية) نسبة إلى منفذ المشروع الوزير عثمان باشا، عزل في العام نفسه، وأعيد تعيينه لولاية الحجاز عام (١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م) حتى عام (١٣١١هـ/ ١٨٩٣م)، له عدة تقارير مهمة عن أوضاع القبائل والعربان والأشراف في الحجاز واليمن. انظر: صابان، سهيل، مداخل بعض أعلام الجزيرة العربية في الأرشيف العثماني (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤٢٥هـ)، ص١٣٣؛ المكي، محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الطبعة الأولى، (بيروت: دار خضراء، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م)، مج٣، ص٣٢٧-٣٢٨.

(٥٢) لا نستبعد أن رفض الوالي عثمان نوري باشا بسبب الشروط التي وضعها الثري الهندي المتبرع نواب (Nawab)، خاصة أن نوري باشا=

إن وجود المياه النقية كان سيؤدي إلى إزالة الأسباب التي تعمل على نمو الكوليرا في منى. كانت الحرارة شديدة في منى هذا العام، وعند عودتي من عرفة إلى منى كنت على وشك الإصابة بضربة شمس.

ظهرت الكوليرا في منى كالعادة في اليوم الثاني الموافق ١٣ أكتوبر، وكان الجنود الأتراك من أوائل الذين أصابتهم الكوليرا، وصرح المسؤول المصري الدكتور الشافعي بك[٥٣] بعد فحصه

= يعلم بأن بريطانيا تعتبر المتبرع الهندي نواب من رعاياها، ومن ثم سوف يحق لها التدخل في المشروع بهذه الحجة، وفي هذا الصدد اطلعنا على وثيقة بريطانية وهي عبارة عن خطاب من القائم بأعمال قنصلية جدة وليم بيرل (Burrell William) إلى حكومته مؤرخ ١١ أكتوبر١٨٨٠م (٦ ذي القعدة ١٢٩٧هـ)، ووجدنا فيها أن أحد رعايا حكومة الهند البريطانية من الهنود وهو الشيخ إلهي روقي (Ellahi Rukeh) قد تبرع بمبلغ (١٠٠٠٠) روبية عام (١٢٩٧هـ/١٨٨٠م) لإصلاح عين زبيدة في مكة المكرمة، واعتبرت حكومة الهند البريطانية نفسها مسؤولة عن الإشراف على صرف المبلغ للإصلاح المطلوب ولهذا كُلِّف القنصل البريطاني في جدة بتقديم ما يمكن من جهود حتى لا يستغل هذا المبلغ في غير موضعه. انظر:

F.O 195/1314 (236365), Jeddah, October 11, 1880.

(٥٣) بعد ظهور وباء الكوليرا في الحجاز عام (١٢٨١هـ/ ١٨٦٥م) أرسلت الإدارة المصرية هيئة طبية إلى الحجاز، لمعاونة الإدارة الصحية العثمانية في خدمة الحجاج في موسم حج عام (١٢٨٢هـ/ ١٨٦٦م)، وكان لها جهود واضحة أيضًا في موسم حج عام (١٢٨٣هـ/ ١٨٦٧م)، ولكن ظهر وكأن الحجاز تابع لمصر، خاصة بعد تأسيسها نقاطًا صحية دائمة خاصة بها في سواحل البحر الأحمر، الأمر الذي أثار حفيظة الحكومة العثمانية في إستانبول، وأدركت أن تأسيس مصر - التابعة قانونيًا للدولة العثمانية - لإدارة صحية مستقلة ما هو إلا محاولة لإثبات الاستقلال الفعلي لمصر. انظر: يلدز، الحجر، ص٦٤-٦٩.

حالات الكوليرا أنه يعتقد اعتقادًا كاملاً - كما سبق وذكرت وكتبت في العام الماضي - أن منى هي موطن الكوليرا في موسم الحج(٥٤). وبطبيعة الحال حمل الحجاج الكوليرا معهم عند عودتهم من منى إلى مكة، ولكنها كانت أقل قسوة من العام الماضي. وقد استمر انتشارها حتى ١٢ نوفمبر.

(٥٤) حاول معد التقرير التأكيد أن موطن الكوليرا في الحجاز، بل في منى، وليس الهند، وهو أمر سوف يحرص على تأكيده في بقية صفحات التقرير كل ما لاحت له فرصة لذلك، وفي هذه الفقرة تحديدًا يستشهد بتصريح المسؤول المصري الدكتور الشافعي، ولا نعلم مدى مصداقية هذه الشهادة، كما يجب أن لا يغيب عنا تأثير أمرين على نائب القنصل الأول وهو أصوله الهندية. والثاني تبعيته السياسية لحكومة الهند البريطانية، والحقيقة أن الشواهد الطبية التاريخية أكدت أن الهند هي موطن وباء الكوليرا؛ إذ ينتقل من الهند إلى الحجاز بواسطة الحجاج الهنود، ثم تسهم عدة عوامل في انتشاره في الحجاز، وفي مقدمتها تردي الأوضاع الصحية فيه. ويؤكد ما ذهبنا إليه ما ذكره الرحالة الفرنسي جرفيه كورتلمون (Gervais Courtell Emont) في كتابة "رحلتي إلى مكة المكرمة" والذي اعتمد فيه اعتمادًا كليًا على ما ذكره الطبيب الفرنسي أخيل - إدريان بروست (Achille Adrien Proust) في كتابه "الاتجاه الجديد للسياسة الصحية"، الذي قام برحلة إلى الحجاز في موسم حج عام (١٣١٠هـ/ ١٨٩٣م) وجاء فيه: "أن الكوليرا لم تنشأ أبدا في منى، بل يأتي بها الحجاج الهنود معهم من بلادهم التي يتفشى فيها هذا الوباء، ثم تنمو وتنتشر في منى، فتصيب الأشخاص الضعفاء الذين يقعون ضحية الفقر المدقع، والتعب المجهد في ظروف صحية سيئة، وأكرر القول: إنه من المستحيل القبول بقول من يدعي أن الكوليرا تنشأ في منى". ومما سبق نرى أن الفكرة التي حرص معد التقرير على تأكيدها في تقريره عام (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م) قد رفضت بشهادة الطبيب الفرنسي بروست، التي سجلها عام (١٣١٠هـ/ ١٨٩٣م). انظر: البقاعي، محمد خير: "أدريان بروست ليس له رحلة إلى الحجاز"، مجلة الدارة، العدد الثالث، (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٣هـ)، ص١٤١-١٥٥.

وبلغ عدد الوفيات من خلال ما توصلت إليه من مصادري الخاصة في الفترة مِن ١٤ أكتوبر إلى ٦ نوفمبر[٥٥] كالتالي:

| التاريخ | عدد المتوفين بالكوليرا |
|---|---|
| ١٤ أكتوبر | ١٦ |
| ١٥ أكتوبر | ٤٠ |
| ١٦ أكتوبر | ٢٠ |
| ١٧ أكتوبر | ٣٥ |
| ١٨ أكتوبر | ٤٥ |
| ١٩ أكتوبر | ٢٣ |
| ٢٠ أكتوبر | ١٧ |
| ٢١ أكتوبر | ١٤ |
| ٢٢ أكتوبر | ٦٥ |
| ٢٣ أكتوبر | ٢٠ |
| ٢٤ أكتوبر | ٢٤ |
| ٢٥ أكتوبر | ٢٠ |
| ٢٦ أكتوبر | ١١ |
| ٢٧ أكتوبر | ١٣ |
| ٢٨ أكتوبر | ٩ |
| ٢٩ أكتوبر | ٧ |
| ٣٠ أكتوبر | ١٣ |
| ٣١ أكتوبر | ٨ |
| ١ نوفمبر | ١١ |
| ٢ نوفمبر | ١٥ |
| ٣ نوفمبر | ٦ |
| | **٤٥٢ متوفى** |

(٥٥) درج قناصل بريطانيا أو نوابهم في قنصلية جدة على الاستعانة بعيون لهم لجمع المعلومات التي تهمهم في المحافظة على مصالح حكومتهم في المنطقة، ولهذا أشار نائب القنصل في تقريره إلى أنه توصل إلى هذه الإحصائية عن طريق مصادره الخاصة.

أما عدد الوفيات وفق الإحصائية الرسمية (مكتب الصحة) التي وصلت إلى الدكتور ستاماتيادس (Stamatiades)[٥٦] من الدكتور نوري واطلعت عليها فهي على النحو التالي:

| عدد المتوفين بالكوليرا | التاريخ |
|---|---|
| ١٩ | ١٤ أكتوبر |
| ٣٢ | ١٥ أكتوبر |
| ٣٨ | ١٦ أكتوبر |
| ٢٠ | ١٧ أكتوبر |
| ٤٦ | ١٨ أكتوبر |
| ٢٩ | ١٩ أكتوبر |
| ٣٦ | ٢٠ أكتوبر |
| ٢٠ | ٢١ أكتوبر |
| ٥١ | ٢٢ أكتوبر |
| ٤٢ | ٢٣ أكتوبر |
| ٢٢ | ٢٤ أكتوبر |
| ٢٥ | ٢٥ أكتوبر |
| ٢٧ | ٢٦ أكتوبر |
| ١٢ | ٢٧ أكتوبر |
| ١٠ | ٢٨ أكتوبر |
| ٥ | ٢٩ أكتوبر |
| ٦ | ٣٠ أكتوبر |
| ٤ | ٣١ أكتوبر |
| ٢ | ١ نوفمبر |
| ٢ | ٢ نوفمبر |

(٥٦) شغل الدكتور ستاماتيادس (Stamatiades) منصب مراقب الصحة في جدة، كما شغل منصب مفتش الصحة بالحجر الصحي في جزيرة أبو سعد.

F.O 195/1482 (236378), Jeddah, January 15, 1884.

تابع:

| عدد المتوفين بالكوليرا | التاريخ |
|---|---|
| ٢ | ٣ نوفمبر |
| ١ | ٤ نوفمبر |
| ٤ | ١٢ نوفمبر |
| **٤٥٥ متوفى** | |

وطبقًا للقائمة الثانية التي أعدها مكتب الصحة، فقد ظهر فيها وجود ثماني حالات كوليرا حملها الحجاج معهم عند عودتهم إلى جدة بعد الحج مباشرة، توفي منهم خمسة، وشُفي الثلاثة الآخرون. ويظهر من القائمة السابقة أن الكوليرا انتشرت لمدة شهر في مكة، وخلال هذه الفترة توفي (٤٥٥) فردًا[٥٧]، بينما بلغ عدد وفيات الكوليرا في مكة - العام الماضي والتي بدأت يوم ٢٤ أكتوبر في منى، واستمرت حتى يوم ٦ ديسمبر- طبقًا للتقارير الرسمية (٣٢٤)، مع العلم بأن أعراض الوباء في العام الماضي كانت أقسى من أعراضها في العام الحالي[٥٨]. ولست متأكدًا من فحص الدكتور نوري

(٥٧) نلاحظ عدم دقة المعلومات فقد ذكر معد التقرير أنه لاحظ على القائمة انتشار الكوليرا لمدة شهر، وحصدها (٤٥٥) نسمة، والمدة الموضحة في القائمة هي (٢٣) يومًا وليس شهرًا، وهذا مؤشر إلى احتمالية عدم دقة معد التقرير في بعض الأحيان.

(٥٨) عرض معد التقرير المعلومات هنا بشكل يفرض على القارئ التفكير فيها. وبالتفكير فيها نجد أنه ذكر أن أعداد الحجاج في موسم حج عام (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م) بلغ (٧٥٠٠٠) حاج وعدد الوفيات من الكوليرا كان (٣٢٤) حالة، رغم قسوة الوباء، بينما بلغ عدد حجاج هذا العام أي (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م) (٦٠٠٠٠) حاج، وعدد الوفيات في الإحصائية الرسمية وغير الرسمية بلغ ما بين (٤٥٢) حالة إلى (٤٥٥) حالة، أي=

شخصيًا كل حالات الوفيات، وهل جميعها كانت بسبب الكوليرا؟ أعتقد أنه يمكن الحصول على المعلومات من خلال تقارير المطوفين، أو أقارب المتوفين عندما يحضرون للحصول على تصريح الدفن(٥٩). كانت طرق مكة نظيفة تمامًا خلال موسم الحج، ولكن بعض المنازل التي أقام فيها الحجاج والتي زرتها بنفسي كانت قذرة جدًا(٦٠).

انطلقت قافلة المدينة يوم ٢٤ أكتوبر، وفي مساء يوم ٢٧ كان جميع الحجاج قد غادروا مكة إلى المدينة. وقد استمرت الكوليرا في المدينة لأكثر من أسبوع بعد مغادرة الحجاج لها. علمت أن قافلة دمشق وقافلة المصريين لم يحدث فيها أي إصابة بالكوليرا خلال رحلة عودتهم من المدينة. وعلمت أن طبيب المدينة لاحظ أن موظف الصحة المسؤول عن قافلة دمشق أخفى وجود الكوليرا في القافلة حتى لا توضع في الحجر الصحي(٦١).

= أن هناك تراجعًا في الأوضاع الصحية، وأكد هذا الأمر بذكره في نهاية الفقرة "أن المنازل التي أقام فيها الحجاج كانت قذرة جدًا".

(٥٩) يوضح معد التقرير أن من الممكن الوصول إلى معلومات أكثر دقة عن طريق تقارير المطوفين أو تصاريح الدفن.

(٦٠) لمعرفة المزيد عن منازل أهالي مكة المكرمة بصورة عامة، وفي أثناء مواسم الحج: انظر: مغربي، محمد علي، ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة، الطبعة الثانية (جدة: دار العلم، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م)، ص١٣-١٧. يلدز، الحجر، ص١٥٧-١٥٩؛ صابان، سهيل، رحلة بروست، ص١٢٥.

(٦١) لوحظ إخفاء بعض الموظفين أو ملاحي السفن وجود حالات إصابة بوباء الكوليرا بين الحجاج خوفًا من احتجازهم في المحاجر الصحية التي راوحت مدة الحجز فيها ما بين (٥-٢٠) يومًا، وكان لهذا الأمر تأثيره السلبي، وتمثل ذلك في انتشار الوباء بين الحجاج أو حتى انتقاله من الحجاز إلى مناطق أخرى كمصر أو غيرها.

أخبرني الطبيب المسؤول عن حجاج حيدر آباد عن وجود حالات قليلة من الكوليرا في قافلته في أثناء ذهابهم إلى المدينة، بينما لم يكن هناك أي حالة عند عودتهم منها. ومن خلال عملية التحري التي قمت بها بين حجاج هنود آخرين، وجدت أنهم عانوا بعض الشيء من حالات مماثلة(٦٢).

إن الالتزام بتنفيذ قواعد الحجر الصحي بصرامة هذا العام آتى ثماره(٦٣). فقد ثبت خطأ الفكرة التي تقول إن الكوليرا تأتي مع الحجاج الهنود، وهو ما كتبته في تقرير العام الماضي من أن الكوليرا موطنها منى(٦٤).

إن الأوضاع الصحية في كل من منى ومكة سيئة إلى أبعد الحدود في كل عام. فبدلاً من أن ينظف موظفو الصحة منى من القاذورات الموجودة فيها، ويزيلوا الأسباب التي تؤدي إلى تردي الأوضاع الصحية وتتسبب في نشاط الكوليرا، فإنهم دائمًا ليسوا على قدر المسؤولية، ويتركون الأسباب الداخلية في بلادهم، ويستمرون في البحث عن أسباب خارجية ليلقوا بالمسؤولية عليها(٦٥).

(٦٢) لوحظ سكوت معد التقرير عن الأمور السلبية عندما يتعلق الأمر بالحجاج الهنود.

(٦٣) يشيد التقرير بالالتزام بقواعد الحجر الصحي في موسم حج عام (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م)؛ مما انعكس إيجابيًا على موسم الحج. انظر: يلدز، الحجر، ص٤١-١٢٤.

F.O 195/1314 (236365), Jeddah, December 12, 1880.

(٦٤) محاولة أخرى من معد التقرير للتأكيد بأن موطن الكوليرا هو منى وليس الهند، وقد نوقشت تفصيليًا في الهامش (٥٤).

(٦٥) هجوم واضح من قبل معد التقرير على السلطات المحلية في الحجاز، والتي تقف وراءها الحكومة العثمانية بهدف تبرئة حكومته - حكومة =

الحقيقة أن هناك عوامل داخلية متشابكة تؤدي إلى نمو الكوليرا قد سلم بها الأطباء الآن. أما مسألة انتقالها عن طريق السفن فهو أمر لم يجمع عليه كبار الأطباء(٦٦) مثل الدكتور لويس (Lewi) والدكتور كنجهام (Cunningham)(٦٧). والفقرة التالية من تقرير الدكتور لويس حتى ظهور الكوليرا في عدن سوف تتحدث عن نفسها.

"إن الفكرة التي تقول بأن الهند هي موطن الكوليرا فقط، وأنها تنتشر بسبب التواصل بين البشر، وبواسطة الأنهار، أو الرياح هو رأي يقابل بكثير من المعارضة المنطقية من قبل المتخصصين والرأي العام أيضًا. هذا على الرغم من أن السبب الأصلي للوباء تم تجاهله تمامًا، على الرغم من تسجيل بعض الحقائق عن الوباء، تثبت أن ليس لظهوره علاقة بالأسباب السابقة"(٦٨).

---

= الهند البريطانية – من إسهامها في زيادة الأوضاع الصحية سوءًا في الحجاز، بإرسالها فقراء الهنود ومتسوليها وعجزتها إلى الحجاز في مواسم الحج، ورغم أنه أمر حقيقي رصد في كثير من الوثائق البريطانية، إلا أن معد التقرير ما زال مستمرًا في الدفاع عن حكومته، ويمكن الاطلاع على قوائم بأعداد هؤلاء الفقراء الهنود في الوثائق التالية:

F.O 195/1583 (236571), Jeddah, March 23, 1887. F.O 195/160 (236534), Jeddah, February 15, 1888.

(٦٦) محاولة جديدة لمعد التقرير للتشكيك في أن المسافرين على السفن قد يسهمون في نقل الوباء.

(٦٧) شغل الدكتور كنجهام منصب مسؤول الصحة في حكومة الهند البريطانية.

F.O 195/1482 (236378), Jeddah, January 15, 1884.

(٦٨) يُعد مجمل ما ذكر حيال أسباب انتشار وباء الكوليرا صحيحًا؛ لأن الأبحاث الطبية أكدت أن الإصابة بالوباء لا تتم إلا عن طريق تناول=

"إن السبب الحقيقي الذي يؤدي إلى وقوع الوباء غير معروف تمامًا. ومن الحكمة أن نعلن جهلنا بصراحة بدل أن نضع نظريات تؤدي إلى تغيير اتجاهات الحكومات والأفراد؛ مما قد يتسبب في الحد من الحريات الشخصية وإرباك العلاقات التجارية بين الشعوب"(٦٩).

"منذ احتلال عدن ١٨٣٩م (١٢٥٤هـ) أحصي ظهور وباء الكوليرا خمس مرات في الأعوام التالية: ١٨٤٦م (١٢٦٢هـ)، و١٨٥٨م (١٢٧٤هـ)، و١٨٦٥م (١٢٨١هـ)، و١٨٦٧م (١٢٨٣هـ)، وأخيرًا عام ١٨٨١م (١٢٩٨هـ)، ومنذ افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ)(٧٠) زادت الاتصالات بين الهند وعدن

= طعام أو ماء ملوث ببكتريا الضمة الكوليرية. انظر: منظمة الصحة العالمية.

www.who.int/ar/

(٦٩) يبدو واضحًا استياء معد التقرير من الإجراءات التي تتخذها الحكومات والأفراد للحد من الحريات الشخصية وإرباك العلاقات التجارية، والتي مست بلا أدنى شك المصالح البريطانية السياسية والاقتصادية في البحر الأحمر.

(٧٠) أدركت بريطانيا أن مصالحها السياسية والاقتصادية والاستراتيجية في المنطقة تستوجب منها السيطرة على ميناء عدن، ولهذا سيطرت عليه عام (١٢٥٤هـ/ ١٨٣٩م)، يدفعها إلى ذلك هدفان: أولهما: القضاء على مشروع محمد علي باشا التوسعي. وثانيهما: استخدام عدن محطة لتموين سفنها التجارية بالفحم. وزاد اهتمام بريطانيا بالبحر الأحمر بعد افتتاح قناة السويس عام (١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م)؛ مما دفعها لاحقًا إلى الاستيلاء على القناة ومصر عام (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م)، والتدخل في شؤون السودان. وعليه فإن الأحداث الدولية السابقة فرضت على بريطانيا الاهتمام بميناء مهم كميناء جدة، واستطاع قناصلها ونوابهم فيه رصد ما لم يرصد في السويس أو في عدن، ومن ثم حاولوا تسخير الأحداث السياسية =

زيادة كبيرة. ونلاحظ كذلك أن الفترة الفاصلة بين وباء عام ١٨٦٧، وعام١٨٨١م (١٢٨٣، ١٢٩٨هـ)[٧١] كانت كبيرة لمثيلاتها في الأعوام السابقة".

"إن هذه التجربة العملية لا ينبغي تركها جانبًا في مقابل الرأي النظري، وعلى أية حال فإن ذكاء وحماس أصحاب هذه

---

= أو الاقتصادية. أو الصحية لخدمة المصالح البريطانية، فكان تدني الجانب الصحي في الحجاز وظهور موجات لوباء الكوليرا واحدًا من أهم هذه الأحداث. انظر: القاسمي، سلطان بن محمد: الاحتلال البريطاني لعدن ١٨٣٩م، الطبعة الثانية، (دبي: دار العزيز، ١٩٩٢م)؛ أباظة، فاروق عثمان: عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩-١٩١٨م، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م).

(٧١) المعلومات التي أوردها معد التقرير حيال الفترة المشار إليها يشوبها شيء من عدم الدقة، والصحيح أنه بعد احتلال عدن عام (١٢٥٤هـ/ ١٨٣٩م) ظهر وباء الكوليرا في الحجاز بشدة في عام (١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م)، ثم ظهر الوباء ظهورًا خفيفًا في الأعوام (١٢٦٧هـ/ ١٨٥١م)، و(١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م)، و(١٢٧٣هـ/ ١٨٥٧م)، و(١٢٧٦هـ/ ١٨٦٠م)، وفي موسم حج عام (١٢٨١هـ/ ١٨٦٥م) اشتدت الإصابة بالكوليرا، كما ظهر بعد ذلك في الأعوام (١٢٨٨هـ/ ١٨٧٢م)، و(١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م)، و(١٢٩٥ هـ/ ١٨٧٨م)، (١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م). وللدقة فالفترة الفاصلة هي ما بين عام (١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م) إلى عام (١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م)، وللمعلومية فإن الدولة العثمانية وضعت في عام (١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م) قواعد معاملة السفن الخاصة بنقل الحجاج ومن يخالفها من الملاحين يعرض نفسه للغرامة المالية دون محاكمة والتي تراوحت ما بين عشرة إلى مائتي ليرة. يلدز، الحجر، ص٤٤، ٤٥، ١٣٩.

F.O 195/879 (236389), Jeddah, May 12, 1865. F.O 195/956 (236394), Jeddah, March 2, 1872. F.O 195/1193 (236371), Jeddah, January 5, 1878. F.O 195/1314 (236365), Jeddah, September 7, 1880. F.O 195/1314 (236365), Jeddah, December 12, 1880.

الآراء ربما يمكنهم من أن يقدموا شيئًا يكون سببًا في رفعة شأنهم". "يجب الدخول مباشرة في تفاصيل ظهور آخر وباء الكوليرا في عدن، وخصوصًا الرأي القائل بافتراض حملها مباشرة من بومباي عن طريق السفينة كولومبين (Columbian)". "لقد اقتنعت بعض السلطات الطبية في أوروبا بأن الوباء قد يظهر في أماكن جديدة، وأن السفينة كولومبين قد أسهمت في نقل المرض"(٧٢).

أرسلت خطابًا إلى جريدة التايمز (Times) في ١٨ يوليو الماضي وضمت فيه رأي الدكتور كنجهام المسؤول عن الصحة في حكومة الهند، ومفاده: خطأ فكرة انتقال وباء الكوليرا نتيجة للتواصل بين البشر(٧٣)، وقال فيه: "إن القول بانتقال

(٧٢) بالبحث فيما أورده معد التقرير بخصوص السفينة كولومبين (Columbian) وجدنا أنه في عام (١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م) نقلت السفينة البريطانية هسبيريا (Hesperia) وباء الكوليرا مع الحجاج الهنود إلى جزيرة قمران، وبعد حجزها في الحجر الصحي لمدة سبعة وأربعين يومًا منحت براءة نظافة صحية في الوقت الذي كانت فيه السفينة كولومبين محتجزة أيضًا في الحجر الصحي بقمران لمدة عشرة أيام ثم منحت براءة نظافة صحية، وهكذا جلبت السفينة هسبيريا الكوليرا إلى قمران، وحملتها السفينة كولومبين إلى الحجاز، ولأن السفينة كولومبين وصلت إلى عدن وهي تحمل براءة النظافة فقد أخفى الموظفون الإنجليز في عدن وجود وباء الكوليرا لمدة خمسة عشر يومًا، وهذا يؤكد دور السفينة في نقل وباء الكوليرا، وهو الأمر الذي حاول معد التقرير التشكيك فيه، وأشير إلى ذلك في الهامش (٦٦). انظر: يلدز، الحجر، ص١٤٠-١٤١.

(٧٣) يظهر بوضوح الجهود التي كان يقوم بها نائب القنصل البريطاني الدكتور عبدالرزاق، سواء على مستوى الحكومة البريطانية، أو حتى على مستوى الصحافة الأوروبية، بهدف خدمة المصالح البريطانية في المنطقة.

الكوليرا عن طريق التواصل بين البشر، وإن المرضى ينتجون نوعًا من السموم ينشر المرض يبدو أنه رسخ في العقل العام للمواطنين، وإذا قلت أي شيء مخالف لذلك فلن يكون له سوى أثر طفيف. وأنا متأكد بأن هذا القول يعتمد على قاعدة غير حقيقية، كما أن هذا القول ضد كل التقدم الصحي، ويضر بالصحة العامة والتجارة، وبدون الدخول في مناقشة نظرية يجب إلقاء الضوء على عدة حقائق باختصار".

"كان البحر الأحمر على مدى الدهر أهم وسيلة للاتصال بالهند، كما كان خاليًا من وباء الكوليرا، ومنذ عام ١٨٦٥م (١٢٨١هـ) عانت مصر من الكوليرا مرة واحدة حتى الآن. أما عدن التي تعد أقرب إلى الهند فلم تعان في الماضي قط من المرض إلا مرتين منذ عام ١٨٦٥م (١٢٨١هـ)، وكانت حالات الإصابة بها قليلة".

"طوال التاريخ كان طريق البحر الأحمر خاليًا من الكوليرا، أما أوروبا فقد عانت منه باستمرار، وقد ظهر في بعض أجزاء مختلفة في القارة خلال عشر سنوات مضت منذ عام ١٨٦٥م (١٢٨١هـ)".

"ثبت أهمية المناعة للمرافقين المصابين بالكوليرا، وقد أثبتت التجارب جديتها. وقد أحصيت (٨٠٠٠) مرافق، وثبت من التجارب أنهم لم يعانوا أكثر من باقي الأفراد".

"إننا نرى في مصر نتائج مخيفة لقاعدة إنذار بخصوص نظرية وجود نوع من السم الذي ينتشر من المريض، وإذا انتشر الوباء فسوف يؤدي ذلك إلى كارثة لن يجدي معها

الحجر الصحي، أو التطهير والعزل للمرضى في إيقاف المرض أو التقليل من انتشاره. إن الوسيلة الوحيدة والحقيقية لمنع المرض هو الاهتمام بالأمور الصحية بكل وسيلة، وفي حال وجود المرض ينبغي إخراج هذا الاهتمام من يد السلطات المحلية. إنني أتحدث هنا من مجال خبرة خمسة عشر عامًا أعمل فيها مستشار الصحة الرئيس لحكومة الهند، التي يعد فيها المرض تحت المراقبة الكاملة. وسوف تثبت التجربة إذا ما كنت على خطأ أو على صواب"(٧٤).

إن المناقشة السابقة تنطبق على كل من الحجاز ومصر وعلى أي مكان آخر. إن آراء الطبيبين كنجهام ولويس عن الموضوع تستند إلى خبرتهما الواسعة عن الكوليرا في منطقة واسعة كالهند، ومن المفترض أن تحترم هذه الخبرة في الوسط العلمي، ولكن عندما يعجز المسؤولون عن الصحة في أوروبا وفي الحجاز عن مواجهة الأدلة الواهنة المبنية على حقائق غير مثبتة فإنهم يستمرون في إطلاق الصيحات بأن الهند وأراضيها هي السبب في الكوليرا ومنها تأتي، فهم

(٧٤) إن رؤية الدكتور كنجهام تتلخص في أن الوسيلة الوحيدة لمنع الإصابة بوباء الكوليرا هي الاهتمام بالأمور الصحية، وهي حقيقة أكدتها الأبحاث الطبية، كما أنه كان يرى أن السلطات المحلية عاجزة عن مواجهة الوباء في حال وجوده، ويبدو أن في هذا دعمًا لرأي الدول الأوروبية المطالبة بإرسال هيئة مختلطة للحجاز لمعالجة الأوضاع الصحية فيها، وهو الأمر الذي رفضته الحكومة العثمانية، وللربط بين ما ورد في التقرير والأحداث انظر: يلدز، الحجر، ص٢٠٦-٢١٢.

دائمًا يفرضون القواعد الصارمة على سفن الحجاج وسفن التجارة بالعموم، وذلك بدلاً من القيام بالإصلاحات في الأراضي المقدسة، التي هي في أشد الحاجة إليها(٧٥).

الدكتور ستاماتيادس مراقب صحة جدة قام بكل همة وكفاءة وحزم، وكلّف موظفي الصحة في جدة ومكة بالقيام بإجراءات الحجر الصحي، ولكنهم دهشوا عندما وصلتهم الأخبار عن بداية ظهور وباء الكوليرا في اليوم الثاني في منى، ولو أن صاعقة من سماء صافية نزلت بهم لما أصيبوا بالدهشة نفسها(٧٦)، وقد ذكر لي مترجم القنصلية قدسي (kudsi) " أنه على الرغم من عملهم الشاق في الحجر الصحي إلا أن الكوليرا ظهرت في مكة ومنى لذلك يجب إلغاء الحجر الصحي تمامًا "(٧٧). كان الدكتور ستاماتيادس

(٧٥) محاولات مستمرة من معد التقرير نفي حقيقة بأن للهند دورًا أساسيًا في وصول وباء الكوليرا إلى الحجاز مع الحجاج القادمين منها، وذلك بالاستشهاد بآراء الأطباء، مثل كنجهام ولويس، والاستناد إلى خبرتهم الطويلة في مراقبة الوباء في الهند. كما يبدو اعتراضه على قواعد معاملة السفن الخاصة بنقل الحجاج والتي فرضتها الدولة العثمانية عام (١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م)، بدلاً من إصلاحها النواحي الصحية في الحجاز.

F.O 195/1314 (236365), Jeddah, December 12, 1880.

(٧٦) رغم اهتمام الدكتور ستاماتيادس مراقب صحة جدة بالقيام بإجراءات الحجر الصحي إلا أن وباء الكوليرا ظهر في اليوم الثاني من أيام التشريق بمنى بين الحجاج في موسم حج عام (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م).

(٧٧) المقصود به يوسف قدسي الهندي الأصل، وقيل إنه كان يهوديًا واعتنق الإسلام، عمله الرسمي هو مترجم في القنصلية البريطانية في جدة، ولكنه مارس عملا أكثر أهمية وهو التجسس لصالح =

متأكدًا من أن الكوليرا لم تأت من الهند، وإنما جاءت مع قافلة المحمل المصري لانتشار الكوليرا آنذاك في مصر(٧٨).

لقد تمكنت من الوصول إلى عدة حقائق حول قافلة المحمل المصري من خلال المصادر الخاصة الموثوق بها والتي تدل على صدق الافتراض السابق. وبعد التحري الذي قمت به مع الدكتور شافعي بك مسؤول الصحة المصري ومع آخرين نرى أن قافلة المحمل المصري تكونت هذا العام من حوالي (٤٠٠) فرد، نصفهم من الجنود والموظفين الذين يأتون مع المحمل، أما الباقون فهم من المتسولين والمواطنين والفقراء، وهؤلاء ليس لديهم موارد للإنفاق على تجهيز الجمال لأنفسهم ويسافرون سيرًا على الأقدام. وتبلغ طول مدة الرحلة من القاهرة إلى مكة (٤٢) يومًا، وهي مدة طويلة ولكن لم يُتوفَّ خلالها أي فرد بالكوليرا. وحالة الوفاة الوحيدة التي وردت في التقرير كانت بسبب ضربة شمس. كانت الحالة الصحية لقافلة المحمل طوال الطريق جيدة.

= القنصلية مستغلا كونه مسلمًا ويستطيع الذهاب بحرية إلى مكة المكرمة، التي كان يحظر على المسيحيين، وكان له دور أيضًا في إرسال عينة من ماء ملوث على أساس أنه ماء زمزم إلى القنصل البريطاني في جدة جيمس زوهراب (Zohrab James)، الذي أرسلها بدوره إلى لندن لإثبات فكرة أن ماء زمزم هو ماء ملوث ومصدر لوباء الكوليرا، ولكن بعد إجراء التحاليل اللازمة ثبت عدم صحة ذلك. انظر: يلدز، الحجر، ص١٧٠-١٧٦.

F.O 195/1482 (236378), Jeddah, No 17, May 23, 1884.

(٧٨) هذا الرأي يتعارض مع ما ورد عند يلدز حيث ذكرت أن الحجاج القادمين إلى قمران عام (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م) هم الذين حملوا معهم وباء الكوليرا إلى الحجاز؛ يلدز، الحجر، ص١٤٢.

وأخبرني الدكتور شافعي نقلا عن المسؤول عن المحمل أن (٢٠٠) حاج كانوا غير قادرين على الالتحاق بقافلة الجمال كما أن بعضهم سقطوا عن ظهور الجمال، وعندما رأى هذه الحالة أركب (١٥٠) منهم على متن سمبوك في العقبة والوجه وكذلك على سفن محلية أخرى.

إن قبول حقيقة ما ذكره الدكتور نوري من أن قافلة المحمل بدأت من منطقة موبوءة يجعلنا نتساءل هل ظهرت أية حالة للإصابة بالكوليرا خلال مسيرة القافلة؟ وبالإجابة نجد أنه لم تظهر أي حالة إصابة بالوباء خلال الرحلة، أو حتى بعد وصول الحجاج إلى مكة المكرمة وإقامتهم فيها لمدة سبعة أيام، ولا بعد وصولهم إلى عرفات حتى اليوم الأول في منى، ولهذا يعد من السخف بمكان القول إن الكوليرا جاءت مع القافلة المصرية.

إن الحقيقة العلمية المسلم بها من قبل الأطباء أن: الجرثومة والعدوى وانتشار مرض الكوليرا أيًا كانت أعراضها، سواء كانت خبيثة أم غير ذلك تظهر خلال عشرة أيام. وإذا انتهت فترة حضانتها لا يكون هناك خوف منها. لقد قطعت القافلة الرحلة من القاهرة إلى جدة في اثنين وأربعين يومًا، كما أمضى الحجاج سبعة أيام في مكة قبل أدائهم المناسك في عرفات ومنى، لذلك فإن الكوليرا كانت أمامها فرصة لتنشط خلال خمس دورات، والمعروف طبقًا لما سبق ذكره مدى رقة حال الحجاج المصريين في قافلة المحمل، ومعنى هذا أن الكوليرا ظلت كامنة طوال هذه المدة، ثم بدأت

في النمو البطيء في أودية منى لتظهر فيها في اليوم الثاني لوصول الحجاج إليها. إن هذه الفكرة سخيفة وتدعو للسخرية.

ويتبادر إلى الذهن سؤال آخر من كون الكوليرا وباءً مستوردًا، فلماذا لم يظهر الوباء قبل الحج، في جدة أو مكة المكرمة أو المدينة المنورة أو في عرفات خلال مرور الحجاج في هذه الأماكن؟ ولماذا يظهر الوباء في منى في اليوم التالي؟ إن قول بعض الأطباء المأثور إن الكوليرا تعالج نفسها بنفسها هو قول يتطابق مع قول الأطباء الأتراك المسؤولين عن الحالة الصحية في مكة ومنى، وهم بدلاً من اتهام الهنود أو المصريين، كان من الأفضل لهم لو صححوا الانتهاكات الصحية الموجودة – مع الأسف – في الأماكن التي يقيم فيها الحجاج خلال موسم الحج(٧٩).

إن الحقائق التي سردتها، والتفاصيل التي ذكرتها في تقرير العام الماضي، توضح أن الكوليرا تظهر كل عام في منى وهي ليست هندية، ولا مصرية، ولكنها متوطنة في منى، وهي نتيجة للخلل في الأوضاع الصحية المحلية، حيث تتوافر فيها البيئة المنشطة لنمو المرض من حيث سوء الأحوال الجوية، والمياه غير النقية، والتربة المشبعة بالروث المتعفن، والعوامل الحيوية الأخرى، وهي جميعها قائمة في المكان. بل

(٧٩) إن مجمل ما أشار إليه معد التقرير يتلخص في أن حجاج الهند أو مصر لم يحملوا الوباء معهم إلى الحجاز ولا يجوز اتهامهم بذلك، والدليل أن وباء الكوليرا لم يظهر إلا في منى نتيجة لسوء الأوضاع الصحية.

يضاف إليها المزيد كل عام دون اتخاذ الإجراءات الصحيحة لإزالتها والتخلص منها. وتبدأ هذه العوامل الكامنة في أداء دورها عند كل تجمع سنوي في تجمعات المدينة والسهول المحيطة بها والقريبة منها، وتؤدي زيادة القاذورات وذبح الآلاف من رؤوس الأغنام والماعز والجمال في مناطق قريبة من مخيمات السكن إلى ظهورها وانفجارها. المطلوب اتخاذ الإجراءات الصحية المناسبة من تنظيف المكان والإصطبلات ومد المنطقة بالمياه النقية الصالحة للشرب، فهي أفضل شيء يُقدم لإنقاذ الحجاج من هذا الوباء السنوي المدمر والمخيف، وليس عن طريق مراقبة حدود الصحراء وإنشاء محطات الحجر الصحي على شاطىء البحر في الحجاز(٨٠).

وأنتهز هذه الفرصة للحديث بكلمات عدة عن الأعداد الكبيرة من الحجاج الهنود الذين كانوا يحضرون كل عام.

إن أعمال البر والإحسان التي يرغب أثرياء الهنود في القيام بها عن طريق إرسال مجموعات من الفقراء إلى الحج

(٨٠) استمر معد التقرير في التأكيد أن موطن وباء الكوليرا هو منى، وأنها ليست هندية أو مصرية، وهي نتيجة لتردي الأوضاع الصحية المحلية في الحجاز والتي استعرض تفاصيلها في تقريره ونحن نختلف معه في الرأي من حيث نفيه التام عن الحجاج الهنود تهمه نقل وباء الكوليرا من الهند إلى الحجاز؛ لأن الثابت توطنها في شبه القارة الهندية، وقد اعتبر نهر الغانج فيها مصدرًا للتلوث، أما مصر فغالبًا ما كان الوباء يصل إلى أراضيها عن طريق الحجاج العائدين من الحجاز. ولكننا نعتقد أن الأوضاع الصحية المتردية في الحجاز قد أسهمت في توفير البيئة المناسبة لنشاط الوباء، ومن ثم زاد انتشاره، والدليل على ذلك أن ظهوره في الحجاز يرتبط بمواسم الحج.

كل عام هي أعمال ليست في غير محلها فحسب، بل إنها أعمال محبطة للهمم. حيث يتم فيها دفع أجرة السفر أو التمويل له فقط، وهنا ينتهي دور المحسن. إن هؤلاء الأفراد من الحجاج الذين ينتفعون بها هم من طائفة المتسولين الذين يزعجون المسافرين المرافقين لهم خلال رحلة القدوم، ويطلبون منهم إمدادهم بالخبز اليومي. وبعد أن ينزلوا هنا يكفّون عن التسول خلال موسم الحج، ولكن بعد انتهاء مناسك الحج يعيشون عيشة مزرية، في أكثر المناطق فقرًا، ويعانون الجوع وتتهددهم الأمراض، فهم لا يفطرون القلب فقط، ولكنهم السبب فيما تلقيه علينا السلطات المحلية من لوم كل عام، في تذكيرنا بأن جميع القاذورات الملقاة في المدن هي بسبب الحجاج الهنود، وأن القاذورات الموجودة في مساكن هؤلاء الحجاج هي السبب في انتشار الأمراض. وعندما تكون السفينة البريطانية في الميناء تطلب السلطات المحلية من القنصلية الإسراع في إبعاد هؤلاء المشردين بعيدًا، وهنا لا تستطيع القنصلية فعل أي شيء إزاء هذا الوضع(٨١).

بالعودة إلى تقريري لعام ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ) فقد سبق أن اقترحت أنه يجب عدم السماح لأي فرد بالحضور إلى هنا إذا لم يكن لديه الموارد المالية الكافية لتغطية نفقاته. واقترحت أن يكون لدى كل فرد على الأقل مبلغ (٣٠٠) روبية

(٨١) الحرص على إبراز ما قد يتسبب عنه سماح حكومة الهند البريطانية لفقراء الهند ومتسوليها بالقدوم للحجاز لأداء الحج من إحراج للقنصلية البريطانية في جدة أمام السلطات المحلية، دون الإشارة إلى إسهام ذلك في زيادة تردي الأوضاع الصحية في الحجاز.

كحد أدنى تكون مع الحاج عند وصوله إلى هنا. وفي الأوضاع الحالية فإنني أجد سببًا إضافيًا لكي أكرر هذا الاقتراح. إن الحجر الصحي والطريق الطويل الذي يقطعه الحاج إلى هذه البلاد يتطلب نفقات، يضاف إلى ذلك أن السفن تتباطأ في نقل الحجاج في رحلة العودة لأنها لا تجد ذلك مجزيًا لها، ولذلك ليس لها وقت محدد لحملهم في رحلة العودة، وهي ترى أنها لا تريد إحراج المسلمين في مشاعرهم الدينية بالتقيد بمواعيد محددة مما يضاعف المشكلة في طول بقائهم في البلاد.

تركيا وإيران ومصر والمغرب جميعها بلاد مسلمة، ولكنهم يتقيدون بمثل هذه القواعد، كذلك فإن الفرنسيين في الجزائر وتونس لا يسمحون لرعاياهم بالقدوم للحج إذا لم يكن لديهم الإمكانيات اللازمة للإنفاق عليه(٨٢).

إن عدد الذين جاؤوا من الهند وتبرع لهم الخيرون لأدائه بلغ هذا العام (٢٥١٥) من المجموع الكلي للحجاج الهنود الذين بلغ عددهم (١١٧٦٦) حاجًا(٨٣).

(٨٢) مطالبة معد التقرير حكومة الهند البريطانية بمحاكاة ما قامت به فرنسا في الجزائر وتونس من إجراءات ضمنت بها عدم إحراج قنصليتها في جدة، من حيث عدم السماح للحاج المسلم بالسفر إلا إذا توافر لديه مبلغ (١٢٠٠) فرنك. انظر: يلدز، الحجر، ص٢١٢-٢١٤.

(٨٣) يبدو أن حكومة الهند البريطانية كانت مصرة على الاستمرار في سياسة إرسال فقراء الهند ومتسوليها إلى الحجاز بهدف إحراج السلطان العثماني وإظهاره بمظهر العاجز عن معالجة الأوضاع الصحية في الحجاز، والدليل على هذا أن عدد هؤلاء الفقراء الذين=

| عدد الحجاج | عدد الحجاج | التاريخ |
|---|---|---|
| ١٦ | رحلة (١) (خمس رحلات) | Columbian |
| ٩٨ | (٢) | |
| ٢٦٩ | (٣) | |
| ١٧٨ | (٤) | |
| ٣٢٤ | (٥) | |
| ١٧ | | Arago |
| ٧ | | Adowa |
| ٤ | | Delhi |
| ٢ | | Ophir |
| ١ | | Calyprso |
| ١٥٠ | رحلة (١) | Clan Alpine |
| ٣١٧ | رحلتان (٢) | |
| ٨٨ | | Orion |
| ٢٠٠ | | Castle ford |
| ٥٦ | | Inaharaje |
| ١٦٢ | | King Arthur |
| ١٩٤ | | Clan Lamont |
| ٢٢٠ | | Clan Forbes |
| ٢١٢ | | Roehampton |
| ٢٥١٥ | المجموع | |

وقد ذكر لي الدكتور ستاماتيادس مفتش الصحة في الحجر الصحي في جزيرة أبو سعد[٨٤] أنه قدم الطعام لـ

= سمح لهم بالقدوم للحج في موسم حج عام (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م)، كان (٢٥١٥) حاجًا، أما في موسم حج عام (١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م) فقد ازداد عددهم إلى (٤٩٥٥) حاجًا.

F.O 195/1610 (236534), Jeddah, February 15, 1888. F.O 195/1482 (236378), Jeddah, January 15, 1884.

(٨٤) جزيرة أبو سعد: أكبر ثلاث جزر قريبة من ميناء جدة، الثانية =

(٣٦٢) حاجًا. وكان في كل من مكة وجدة عدد كبير من الهنود الفقراء الذين كانوا ينتظرون الفرصة الذهبية لكي يتبرع أحد التجار الهنود بنقلهم دون أجر، ولكن يبدو أن الوضع لم يكن كذلك خلال هذا العام. فيجبُ منع المتسولين من الحضور إلى الحج، ويجب وضع الضوابط بالتدريج(٨٥). وفي الختام أضيف شيئًا آخر عن أحوال طريق جدة – المدينة غير الآمن فقد اشتكى لي الحجاج الهنود كثيرًا هذا العام من تعرضهم للهجوم والاعتداء عليهم من قبل البدو عند اقترابهم من القوافل، وليس فقط حين إقامة المخيمات، ولكن أيضًا في أثناء سير القافلة. وحصلت على تقارير مفصلة من حجاج حيدر آباد الذين يسافرون معًا في مجموعة كبيرة. وقد أصيب نحو (١٠٠) منهم، بعضهم كانت إصاباته خطيرة، وجرحوا على يد البدو، في أثناء محاولة سرقتهم.

ضرب الحجاج بالعصي أو بالعصي المزودة بالجلد أو الحديد، وكانت أغلب الإصابات على الظهر ، وتوفي عدد قليل من الحجاج بسبب سوء العلاج وشُفي آخرون. لم تهاجم العصابات الكبيرة المنظمة قوافل الحجاج هذا العام، ولكن

= اسمها الواسطة، والثالثة هي أم علي، ولكن أشهر هذه الجزر هي جزيرة أبو سعد، لأنها كانت محجرًا صحيًا للحجاج الذين يصابون بالأوبئة، ومنها الكوليرا، وفي الجزيرة صهاريج للماء العذب ومبان لسكن الحجاج.

(٨٥) حرصًا من الدولة العثمانية على إجلاء فقراء الهند ومتسوليها من الحجاز بسبب ما يترتب عليه استمرار وجودهم من زيادة تردي الأوضاع الصحية في الحجاز تحمل السلطان العثماني في كثير من الأحيان دفع تكاليف رحلة عودتهم إلى الهند؛ يلدز، الحجر، ص١٢١.

الحجاج كانوا في حالة قلق دائم، وقالوا لي إنهم كانوا يخشون مهاجمة البدو أو ضربهم عندما يتعرضون لهم، خوفًا من انتقام القبائل منهم على طول الطريق. فعمل الوالي ترتيبات جزئية مع القبائل من أجل تأمين طريق المدينة، نتيجة الأوضاع السابقة. ومما يؤسف له أنه لا يمكن عمل ترتيبات أفضل من أجل ضمان أمن الحجاج وسلامتهم، خلال هذا الجزء المهم من رحلتهم، وهو زيارة المدينة(٨٦).

(٨٦) درج العثمانيون على منح العطايا النقدية والعينية للقبائل في الحجاز حتى يضمنوا سلامة قوافل الحجاج، والحقيقة أن الوالي الذي أشار إليه معد التقرير هو الوالي العثماني عثمان نوري باشا الذي تعاون مع قبيلة حرب لحفظ النظام وصد حملات البدو لضمان سلامة قوافل الحجاج. انظر: جارشلي، إسماعيل حقي: أشراف مكة وأمراؤها في العهد العثماني، ترجمة خليل علي مراد، الطبعة الأولى، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٣م)، ص١٠٧-١١٤؛ المعبدي، مبارك محمد، النشاط التجاري، ص١٢٦.

## الخاتمة:

لقد ظهر وباء الكوليرا في الحجاز لأول مرة عام (١٢٤٦هـ/ ١٨٣١م)، ثم تعاقب عليه في موجات يعقب بعضها بعضًا، حتى أدى ذلك إلى طرح الأوضاع الصحية في الحجاز وشؤون الحج في جدول أعمال الدول الأوروبية، خاصة بريطانيا التي حرصت على استغلال أية فرصة لتوطيد هيمنتها السياسية والاقتصادية في منطقة اعتبرتها إستراتيجية لمصالحها الدولية. وفي المقابل حرص السلطان عبدالحميد الثاني على التصدي لكل تلك المساعي بكل قواه السياسية والاقتصادية والدينية، فإن الدول الأوروبية سعت إلى إيجاد قناعة لدى الرأي العام الأوروبي عقب كل موجة من موجات الوباء بأن الحجاز هو موطن الكوليرا، واعتبرت أن الدولة العثمانية مسؤولة عن ذلك، لعجزها عن تحسين الأوضاع الصحية فيه. وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية لم تألُ جهدًا في سبيل تحقيق ذلك رغم المحن والأزمات التي ألمت بها في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، إلا أنها بدأت منذ عام (١٢٨٢هـ/ ١٨٦٦م) في إرسال هيئات صحية متعاقبة إلى الحجاز، وأنشأت المحاجر الصحية على امتداد سواحل البحر الأحمر، ولكن ذلك لم يحل دون استمرار انتشار وباء الكوليرا في الحجاز، خاصة مع تعدد العوامل الداخلية والخارجية التي أسهمت في ذلك، وسبق أن أشرنا إليها في ثنايا الدراسة واتضح بعضها في التقرير الذي أعده نائب القنصل البريطاني في قنصلية جدة الدكتور عبدالرزاق عن موسم حج عام (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م)، وأهمها: تدني

الأوضاع الصحية في الحجاز، ومحاولة بريطانيا زيادة هذه الأوضاع سوءًا، بالاستمرار في إرسال الفقراء الهنود إلى الحجاز في كل عام، حتى تظهر السلطان العثماني بمظهر العاجز عن معالجة تلك الأوضاع.

ولكن جاء موسم حج عام (١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م) لينفي عن السلطة المركزية والسلطات المحلية في الحجاز تهمة التقاعس عن الاهتمام بالأوضاع، حيث كان خاليًا من وجود الكوليرا، وفقًا لما ذكره نائب القنصل البريطاني الدكتور عبدالرزاق في جزء من تقريره عن موسم حج ذلك العام ، حيث كتب قائلاً: "قام الوالي بترتيبات أفضل لتنظيف وكنس شوارع مكة ومنى، وأصبحت هذه الأماكن أكثر نظافة ووضعت الترتيبات بتفريغ الصهاريج والخزانات من المياه التي تجمعت فيها خلال موسم الأمطار، لذلك كان على الحجاج شراء المياه التي أحضروها من عين زبيدة. وعندما علم حمالو المياه في جدة بتفريغ المياه من الصهاريج، حضر عدد كبير منهم بجمالهم إلى منى، وتمكنوا من تحقيق أرباح جيدة خلال الأيام الثلاثة. كانت المياه رخيصة ووضعت في الأماكن التي أمكن للجميع الوصول إليها؛ لذلك شرب الحجاج مياهًا نقية وجيدة خلال وجودهم في منى".

وفي موضع آخر من التقرير يقول: "كانت طريقة ذبح الأضاحي أفضل في هذا العام، وحفرت خنادق بالقرب منهم لرمي المخلفات التي كان يهال عليها التراب في الخندق. استخدم عدد أكبر من عربات جمع القمامة عمل عليها عدد

أكبر من العمال لكنس البقايا وتنظيف الأزقة والشوارع. كانت الحرارة أقل هذا العام في منى من العامين السابقين، لأن النسيم كان ينتشر في كل الوادي. تناثرت مخيمات الحجاج على مسافات واسعة على غير العادة، لأن الحجاج الإيرانيين منعوا من قبل حكومتهم من الحضور هذا العام. أضيفت أعداد من الفوانيس إلى تلك التي تضيء الشوارع، وعولجت معظم الأسباب التي أدت إلى انتشار الكوليرا. أدت هذه العوامل السابقة إلى اختفاء وباء الكوليرا، إضافة إلى انخفاض درجة الحرارة وتوافر مياه الشرب النقية... في بلاد جبلية مثل الحجاز تربتها جافة ورملية فإنها لا تحتاج إلا إلى قدر قليل من الرعاية الصحية واتخاذ الاحتياطات العادية لمنع انتشار الأوبئة".

ووصف مدينة مكة بقوله: "كانت مدينة مكة أكثر نظافة من السنوات السابقة، ولكني لا أستطيع أن أتحدث عن نظافة جدة من عدمها، حيث إنني لم ألاحظ شيئًا خلال مرور الحجاج من مكة وإليها". ثم يورد وصفًا للطريق بين مكة وجدة بقوله: "كان الطريق بين جدة ومكة آمنًا هذا العام، ولم يفقد الحجاج الهنود أيًا من ممتلكاتهم. والحادثة الوحيدة التي وقعت كانت مقتل تاجر بخاري على بعد ميل من مكة في اليوم السابق للحج... وعندما وصلت الأنباء بأن السفينة شاه جيهان والتي تحمل الهنود على ظهرها سوف تخضع للحجر الصحي في قمران وأن الحجاج لن يصلوا إلى جدة قبل يوم ٢٦ سبتمبر، اشتد الخوف من أنهم لن يستطيعوا أن يلتحقوا

بموسم الحج الذي يبدأ يوم ٢٩ سبتمبر. لذا أرسل الوالي أوامره إلى قائدي الجمال بأن تكون مستعدة، وحدد السعر الذي يدفعه الحاج حتى لا يبتزهم الجمالون. فعندما وصلت السفينة يوم ٢٧ كان الجمالون جاهزين ونقلوا الحجاج مباشرة إلى مكة المكرمة. وشكرت الوالي عندما قابلته"[٨٧].

وأخيرًا فرغم كل المثالب التي يمكن الوقوف عندها بشأن مضامين تقرير نائب القنصل البريطاني عن موسم حج عام (١٣٠٠هـ/١٨٨٣م)، إلا أنه يبقى ذا أهمية بالغة، إذ يوفر معلومات مهمة عن تلك الفترة، خاصة فيما يتعلق بموسم حج ذلك العام . ولهذا فإن مثل هذه التقارير التي كتبها قناصل الدول الأوروبية أو نوابهم، الذين كان لدولهم تمثيل دبلوماسي في مدينة جدة، تُعد من المصادر المهمة التي تكشف لنا النقاب عن كثير من المعلومات المرتبطة بتاريخ مدينة من أهم المدن الحجازية، وهي مدينة جدة وبوابة مكة المكرمة، كما يطلق عليها عامة، وشؤون الحج خاصة، بغض النظر عما خالط هذه المعلومات من مبالغة أو عدم دقة في بعض الأحيان، إلا أن مادتها العلمية لا تخلو من فائدة إذا عوملت بمنهجية علمية.

(87) F.O 195/1514, Jeddah, January 10, 1885.

# الملحق

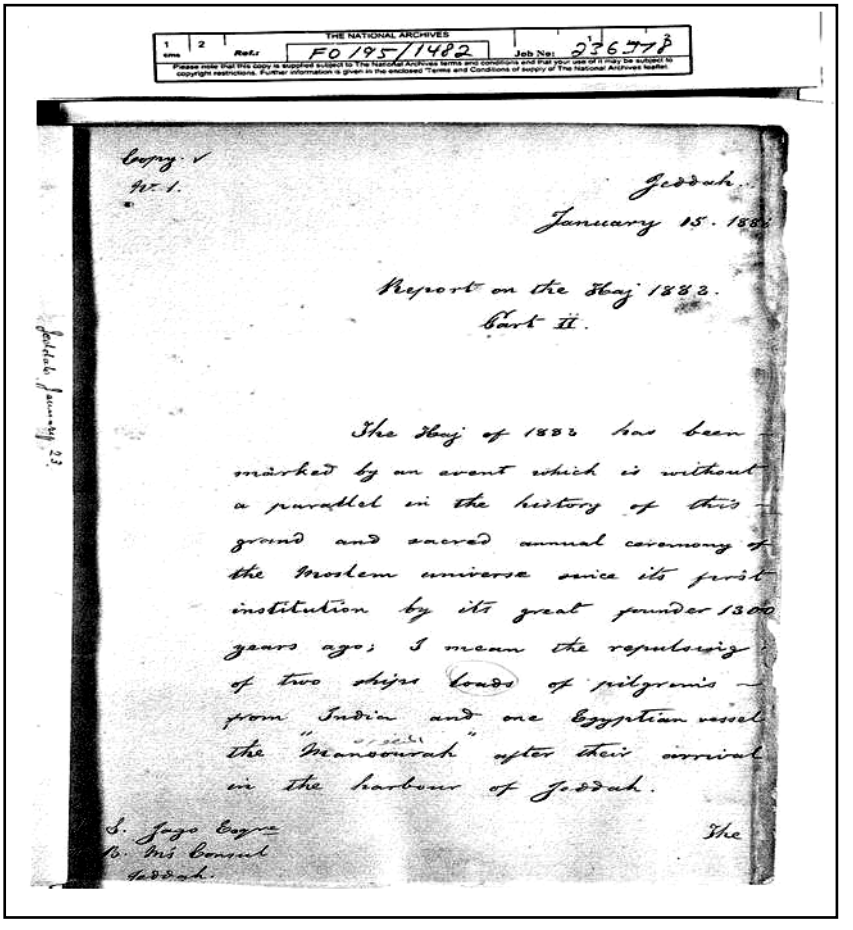
THE NATIONAL ARCHIVES
Ref: FO 195/1482
Job No: 236778
Please note that this copy is supplied subject to The National Archives terms and conditions and that your use of it may be subject to copyright restrictions. Further information is given in the enclosed "Terms and Conditions of supply of The National Archives leaflet."

Copy ✓
Nr. 1.

Jeddah
January 15. 1883

Report on the Hajj 1882.
Part II.

The Hajj of 1882 has been marked by an event which is without a parallel in the history of this grand and sacred annual ceremony of the Moslem universe since its first institution by its great founder 1300 years ago; I mean the repulsing of two ships loads of pilgrems from India and one Egyptian vessel the "Meanoowrah" after their arrival in the harbour of Jeddah.

The

S. Jago Esqre
H. Ms Consul
Jeddah.

الصفحة الأولى

من تقرير القنصلية البريطانية عن موسم حج عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م